447

HARLEQUIN

روايات أحلام

شبح من الماضي

شانتيل شاو

www.elromancia.com
مرمورية

شبح من الماضي

خافيير هيريرا دوق إسباني ومليونير عديم الرحمة. علمته الحياة بأسلوبها الشائك ألا يقع في الحب مطلقاً. أما الآن فهو يحتاج إلى زوجة حتى يرث أعمال عائلته في قطاع المصارف.

غرايس بيريسفورد. ابنة الرجل الذي سلب من خافيير ملايين الدولارات. لذا فهو يرى فيها فرصة مناسبة للانتقام وللحصول على زوجة ملائمة.. في بادئ الأمر لم يأبه خافيير بكره غرايس له. فكل ما يبتغيه منها هو جسدها. لكنه اكتشف لاحقاً أنها ترفض أن تدفع حتى هذا الثمن... بالرغم من المشاعر المتفجرة بينهما.

حتى متى تستطيع غرايس إبقاء هذا الزواج اسمياً فقط؟

لبنان،	3000ل.ل	البحرين،	1دينار
سوريا،	100ل.س.	السعودية،	10ريال
الأردن،	1.5دينار	مصر،	8جنيه
الكويت،	750فلس	المغرب،	15درهم
الإمارات،	10دراهم	تونس،	2.50دينار
قطر،	10ريال	عمان،	1ريال

ISBN 978-9953-15-415-2

شانتل شو

تعيش في كنت، في منزل يبعد ٥ دقائق عن الشاطىء، لذا ابتكرت الكثير من شخصيات كتبها وهي تتنزه على الشاطىء. كانت شانتيل قارئة نهمة منذ صغرها، حتى إن رفاقها في المدرسة كانوا يخبئون الكتب عندما تزورهم... إلا أنها كانت تنسحب إلى عالمها الخاص فتنسج القصص من خيالها طيلة الوقت. التقت هي نفسها «فارس أحلامها»، وهو أسمر البشرة طويل القامة، فتزوجا وعاشا بسعادة لأكثر من عشرين عاماً، أنجبت خلالها ستة أولاد.

بدأت شانتيل بقراءة قصص «Mills & bonn» وهي في سن المراهقة وأثناء مكوثها في المنزل لرعاية أطفالها، إذ وجدت أن قراءة القصص الخيالية تساعدها كي لا تفقد عقلها أثناء ذلك! تشعر شانتيل بالمتعة عندما تقرأ وتكتب قصصاً عن النساء الرقيقات اللواتي يتحلين بالإرادة القوية والأبطال الجذابين الأكثر قوة، فهي تشعر حينها أنها في قمة السعادة. يحضرها الإلهام القصصي فيما هي تعد الطعام، إلا أن ذلك يسبب الكثير من الكوارث في المطبخ! تحب شانتيل أيضاً العمل في الحديقة، المشي وأكل الشوكولا (يتبع ذلك المزيد من المشي!).

١ - شبح من الماضي

- بشكل ما، أفترض أن هذه مزحة؟

استدار الدوق خافيير أليخاندرو دييغو هيريرا بقوة مبتعداً عن نافذة القصر التي تطل على مناظر مدهشة للريف الأندلسي، وحدّق بالرجل الأكبر سناً.

أجابه رامون أغويلار بقساوة: «أؤكد لك أنني لا أمزح أبداً بخصوص موضوع جدي كهذا».

انتصب شارباه الفضيان سخطاً وحنقاً، لكنه أخفى توتره بخلط أوراق الوثائق التي يحملها بين يديه وتابع قائلاً: «شروط وصية جدك محددة جداً: إن لم تتزوج قبل عيد مولدك السادس والثلاثين، سوف تُسلَّم إدارة مصرف هيريرا إلى نسيبك لورنزو».

أطلق خافيير شتيمة خافتة وقد شعر بالضيق، فيما انعقد حاجباه السوداوان مع بعضهما، وأصبحت بشرته السمراء مشدودة فوق عظمتي خديه البارزين.

أخيراً تكلم قائلاً: «يا إلهي! لطالما اعتبر جدي أن لورنزو ضعيف الشخصية. إنه لا يتمتع بالاندفاع أو بالطموح. أخبرني، ما الذي دفع بكارلوس إلى الاعتقاد أنه أكثر مصداقية مني لإدارة المصرف؟».

تلاشت صدمة عدم التصديق وحل محلها الغضب الشديد مندفعاً أمواجاً تلو أمواج عبر جسد الدوق النحيل المشدود، فتنحنح السنيور أغويلار بعصبية، وتمتم قائلاً: «لديه زوجة».

سقط هذا التعليق الهادئ الذي يكاد يشبه الاعتذار في الغرفة المغمورة

www.elromancia.com

بالصمت كما يسقط الحجر على وجه المياه الساكنة. كان خافيير يطوف في الغرفة كأنه نمر محبوس في قفص، لكنه توقف الآن فجأة. وجه كل جزء من تركيزه إلى المحامي الذي كان من أقدم أصدقاء كارلوس هيريرا والمؤتمن على أسراره.

- جدّي درّبني مذ كنت في العاشرة من عمري لأستلم مكانه على رأس مصرف هيريرا.

همس خافيير بذلك وقد تصلّب فكّه في محاولته لاحتواء مزاجه الغاضب، ثم تابع قائلاً: «لماذا تُراه غيّر رأيه فجأة؟»

توفي جده الدوق، أطال الله عمر الدوق الجديد! فكر خافيير بذلك ساخراً. إن لقبه الأرستقراطي ليس بذي أهمية كبرى بالنسبة له، لأن اهتمامه يتجاوز ذلك إلى تولي إدارة أعمال عائلة هيريرا في مجال الصيرفة. والد خافيير وهو ابن كارلوس توفي أيضاً، وقبل ذلك بوقت طويل تم إبعاده عن العائلة، قبل أن تقضي جرعة مفرطة من المخدرات على حياته. وبما أن خافيير هو الوريث التالي على اللائحة، فقد اتخذ مكانة الدوق الجديد لعائلة هيريرا بعد وفاة كارلوس. لكن يبدو أن التحكم بالمصرف لا يزال بعيداً عن متناوله.

- أتعني أنني حُرمت من حقي في ترؤس المصرف لأن نسيبي متزوج في حين أنني لست كذلك؟ أذاك هو السبب الوحيد؟

بدا خافيير متجهماً، فيما أومضت عيناه الكهرمانيتان نافثتين النيران للحظات، قبل أن يعود ويفرض على نفسه سيطرة حديدية، فيستعيد وجهه قناعاً من الغرور المتعجرف.

- أمنية جدك وهو على فراش الموت كانت بأن يترك المصرف بين يدي رجل أهل للثقة، حرصاً على استمرار نجاحه.

زمجر خافيير بنفاد صبر: «وأنا هو ذلك الرجل».

تابع رامون أغويلار كلامه كما لو أن خافيير لم يتكلم، فقال: «أحس مجلس الإدارة ببعض القلق خلال الأشهر المنصرمة، وتشارك كارلوس معهم في هذا القلق».

أثناء كلامه، قام رامون بنثر مجموعة من الصور الفوتوغرافية على المكتب، تُظهر خافيير برفقة نساء مختلفات. بدا من الواضح أن رفيقاته يتشاركن في الصفات المميزة نفسها، وهي الشعر الأشقر والقامات الرشيقة اللافتة للأنظار.

ألقى خافيير نظرة وجيزة على الصور الفوتوغرافية؛ أولئك النسوة لسن أكثر من مجرد رفقة مسلية لفترة وجيزة. إنه ليس قادراً على تذكر أسماء معظمهن، بالرغم من أنه من دون شك تشارك مع كل منهن علاقة حميمة خالية من تعقيدات المشاعر المثيرة للفوضى. وقف خافيير مستقيماً بطوله الذي يزيد عن الست أقدام، ثم رمق المستشار القانوني بنظرة مترفعة مزدرية اخترقت عظامه قبل أن يقول بنبرة لاذعة: «أكان يتوقع مني أن التزم بالتبتل؟».

- بالطبع لم يتوقع ذلك، فبحسب شروط وصيته هو يتوقع منك إيجاد زوجة.

تحكم رامون أغويلار بأعصابه، وتابع قائلاً: «بحسب تقديراتي، أمامك شهران فقط للقيام بذلك قبل أن تخسر إدارة المصرف لصالح لورنزو. إن مصرف هيريرا هو مصرف تقليدي قديم الطراز...»

أنهى خافيير كلام رامون بغموض قائلاً: «...وأنا أنوي جرّه بالقوة نحو القرن الحادي والعشرين».

- صحيح أن المصرف بحاجة إلى التطوير وإلى أفكار جديدة عصرية، لكنك لن تتمكن من تحقيق هذا التغيير من دون دعم مجلس الإدارة.

نصحه رامون بذلك، ثم استأنف كلامه: «إن المدراء حذرون ويحترسون من التغيير. هم يرغبون برئيس يتشارك معهم في القيم الأخلاقية والأدبية اللائقة، ويحتضن الحياة العائلية. إنهم لا يستمتعون برؤية صورك مع عشيقاتك منثورة على صفحات الصحافة الصفراء».

توقف قليلاً، ثم تابع قائلاً: «كان كارلوس قلقاً... بخصوص حياتك الاجتماعية الناشطة التي قد تؤثر بشكل سلبي على أحكامك. فهمتُ أن

هنالك بعض المشاكل مع الفرع البريطاني للمصرف، فالمدير الذي عينته أنت - المدعو أنغوس بيريسفورد - برهن على أنه اختيار سيء».

لأول مرة في حياته يسيء خافيير الحكم على أحدهم. هذا الخطأ بدا كالسم الفاسد في رأسه خلال الأشهر القليلة الماضية، وذلك منذ أن اكتشف مدى خيانة أنغوس بيريسفورد. ما من داعٍ لأن يذكره رامون بذلك. قال مزمجراً بعصبية: «أنا مسيطر على الوضع تماماً. تم التعامل مع الأمر، ويمكنك أن تطمئن، فأنا سأتولى أمر بيريسفورد».

توتر فك خافيير بشكل منذر بالسوء، فعبر الغرفة مجدداً ليحدق نحو ممتلكات هيريرا البالغة الاتساع. إنه السيد المالك لهذه الأراضي التي يقع عليها نظره، لكنه يشعر كما لو أنه ملك محروم من تاجه. مصرف هيريرا ملكه هو، فقد أمضى السنوات الخمس والعشرين الماضية بانتظار هذه اللحظة. لذا صعب عليه تقبل هذه الحقيقة المريرة لدى إدراكه أن جده شكك في قدراته الإدارية. لم يقتصر الأمر على ذلك، بل إنه عبّر عن شكوكه للآخرين.

صرّح خافيير بنبرة متعالية لا تخلو من التوتر: «أنا أفضل رجل لهذا العمل. كيف استطاع كارلوس أن يشكك بذلك بسبب بضع صور التقطها صحافي لعين في صحيفة للإشاعات؟ الزواج؟! يا إلهي! ما الفائدة التي جناها أبي من الزواج؟ والدتي كانت راقصة فلامنغو تعمل في سيرك جوّال، فدمّرت فرناندو بعلاقاتها الغرامية. ثق بي، أنا لن أمنح أبداً أية امرأة ذاك المستوى العالي من القدرة للسيطرة علي».

تشدق خافيير بكلامه متهكماً، ثم تابع قائلاً: «ما الذي دفع كارلوس، بحق الجحيم إلى الاعتقاد بأنني قد أرغب في الزواج؟»

تمتم رامون قائلاً: «من الطبيعي أن يأمل جدك بأن تختار عروساً تتشارك وإياها الخلفية العائلية نفسها، امرأة يمكنها أن تفهم المسؤوليات التي تترافق مع دورها كزوجة للدوق. في الواقع، ائتمنني كارلوس على سر قبل وقت قصير من مماته، فقال إنه يأمل أن تتزوج لوسيتا فاسكيز».

انفجر خافيير قائلاً: «وأنا أوضحت له بأن لا نية لدي بالزواج من طفلة في السابعة عشرة من عمرها. يا إلهي! لوسيتا ما تزال ترتاد المدرسة».

- صحيح أنها ما تزال يافعة، لكنها ستكون دوقة ممتازة. وبالطبع، بالإضافة إلى الزواج هناك منفعة دمج عائلتين عظيمتين في مجال المصارف. تخيل فقط...

توقف رامون عن الكلام قليلاً، ثم تابع قائلاً بنبرة ناعمة هدفها الاقناع: «... عائلتي هيريرا وفاسكيز مجتمعتين سوياً، وأنت تدير دفة هذه السفينة».

آخر حديث لخافيير مع جده، تضمن هذه العبارات نفسها. أدرك الآن - كما أدرك حينها- كم تبدو فكرة دمج اثنين من أقوى مصارف إسبانيا مثيرة وشيقة. كان كارلوس قد وضع أمام خافيير هذا الطعم الممتاز المغري، لكن خافيير أدرك أن تلك هي طريقة جده في السيطرة عليه والتحكم به حتى وهو في قبره. إن ميغيل فاسكيز وهو أقدم صديق لكارلوس سوف يبقى فوق رأسه، فيما سيصبح هو مرتبطاً بطفلة مدللة لم تخفِ أبداً نزوتها الصبيانية وإعجابها به.

بالطبع رفض خافيير التام للزواج بلوسيتا لم يعجب كارلوس، ولا بد أن الرجل العجوز طلب من رامون أن يعدل وصيته بعد ذاك الحديث المرير الأخير الذي دار بينهما. اعتقد كارلوس أن الضغط على خافيير بضرورة إيجاد زوجة له خلال وقت قصير جداً سيدفع بهذا الأخير إلى الزواج من لوسيتا. لكن يبدو أن الرجل العجوز نسي أن حفيده ورث عنه صفتي التصميم والعناد. إذا كان عليه أن يتزوج فسوف يفعل ذلك، لكنه سيتزوج من امرأة يختارها بنفسه.

فريقه من المحامين القانونيين سوف يدققون النظر في الكلام المدون بالوصية، لكنه يعلم مسبقاً أنها حتما ستكون متماسكة ومحكمة. لطالما كان كارلوس ماكراً كالثعلب، ويبدو أن الموت لم يقلل من قدراته البارعة. حسناً! ستكون الجولة الأولى لصالح الرجل العجوز! أقر خافيير بذلك بابتسامة متصلبة. لكنه مصمم تماماً على الفوز، ولا شيء سوف يمنعه من ضرورة إيجاد

زوجة ملائمة له.

تمتم خافيير ببرود: «إذاً، لدي مهلة شهرين من الزمن حتى أختار دوقة».

ثم انزلق ليجلس على الكرسي الجلدي خلف مكتبه وهو يراقب المحامي الأشيب الجالس أمامه. كان رامون المستشار القانوني لكارلوس طيلة أربعين عاماً، ولا شك في أن وفاة الرجل العجوز أثرت عليه بقوة فقد بدا مرهقاً ومتوتراً.

اتسع فمه في ابتسامة مشوقة تنم بصراحة عن ثقته بقدرته على إيجاد زوجة قبل حلول عيد مولده التالي، فقال: «هل تظنني قادراً على فعل ذلك رامون؟»

أجابه رامون: «أنا صدقاً آمل بذلك. هذا إن كنت جاداً بخصوص رغبتك بأن تصبح الرئيس التالي للمصرف».

- إنه الشيء الوحيد الذي رغبت به، ولن أتوانى عن القيام بأي شيء لكي أحقق هدفي.

تلاشت ابتسامة خافيير، فبدا وجهه مجدداً كما لو أنه منحوت من الرخام. تعرّف رامون إلى إرادة خافيير القوية التي لا يمكن التغلب عليها وهي صفة ورثها الرجل عن جده، فأحس بالتعاطف والشفقة على المرأة المجهولة التي سوف تصبح قريباً الدوقة دي هيريرا. إنها لن تكون قادرة على مقاومة سحر خافيير الخارق حين يواجهها.

وقف خافيير، ثم مد يده تجاه المحامي الأكبر سناً وقال: «سوف نلتقي مجدداً بعد شهرين من اليوم، وسوف أعرفك إلى عروسي».

في هذه الأثناء أخذ يراجع ذهنياً قائمة أسماء عشيقاته المختلفات، مناقشاً نفسه بصمت أياً منهنَّ يستطيع إقناعها بالزواج منه لأقصر فترة ممكنة؟ فكر أنه قد يعرض عليها حافزاً مادياً مناسباً، بحيث تستلم عروسه المبلغ كاملاً فقط بعد مرور يوم على طلاقهما. إنه لا يرغب بأن يساء فهم هذا الزواج على أنه قد يتطور إلى حيث «يعيشان بسعادة وهناء إلى الأبد».

نهض رامون أغويلار ببطء واقفاً على قدميه، ثم قال: «سوف أنتظر ذلك

بشغف. ولدى حلول الذكرى الأولى لزواجكما سوف يسرني أن أوقع على استلامك للسيطرة الكاملة على مصرف هيريرا. حتى ذلك الحين، سوف تتابع مهامك كرئيس للمصرف على أمل أن تجد عروساً قبل حلول عيد مولدك. لكن كل القرارات الهامة الكبرى المتعلقة باتفاقيات أعمال المصرف سوف تخضع إلى شرط موافقتي أنا وفريقي من المحامين القانونيين».

- سنة؟!

تلعثم رامون متوقفاً تحت تأثير نظرات خافيير الجليدية، وقال: «اعتقد جدك أنه يتصرف لصالح مصرف هيريرا».

رمى الدوق الجديد رأسه إلى الوراء، ثم التوت شفتاه في ابتسامة ساخرة وقال مزمجراً: «لا تخطئ الظن رامون. سوف آخذ ما هو لي، ولا شيء سيمنعني عن ذلك، لا سيما أوامر شبح من الماضي».

٢ - عرين الأسد

قصر الأسد هو قصر ذو طراز مراكشي تم بناؤه في جبال سييرا نيفادا المرتفعة في القرن الثاني عشر، وهو يطل على مدينة غرناطة.

راحت الطريق المؤدية إلى القصر تزداد انحداراً كلما اقتربت، فاضطرت غرايس إلى نقل مقبض تبديل السرعة إلى سرعة أعلى عندما واجهت انحناءً خطيراً آخر في طريقها. فكرت وهي تحدق صعوداً نحو القصر الذي بدا وكأنه يتشبث بقوة بتلك الصخور الشاهقة على حافة الجرف المنحدر، أنها لو صعدت بسيارتها أكثر فقد تصل إلى الغيوم.

بدت قمم الجبال البعيدة أكثر ارتفاعاً، وهي ما تزال مغطاة بالثلوج. بدا المنظر الطبيعي نضراً وأخضر مع أن السماء تمطر. أقرت غرايس بكآبة أن الطقس الموحش يتلاءم تماماً مع مزاجها.

لدى وصولها إلى غرناطة قال لها مدير الفندق: «هطلت الأمطار لمدة ثلاثة أيام وهو أمر غير اعتيادي خلال هذا الوقت المتأخر من فصل الربيع. لكن انتظري، فغداً سوف تشرق الشمس وسوف تجعلك سعيدة».

فكرت غرايس متنهدة، أن مدير الفندق لا يعرف شيئاً عن مزاجها، فالأمر سيتطلب أكثر من مجرد تبديل في حالة الطقس حتى ترتفع معنوياتها. تخيلت للحظة وجه والدها الشاحب المنهك مرتمياً على كرسيه وقد نبت شعر ذقنه. انهار مدير المصرف الفخور الأنيق اللباس قبالة عينيها، وحل محله رجل وصل إلى آخر رمق من إمكانياته.

- ليس هنالك ما يمكنك فعله، عزيزتي.

قال لها أنغوس ذلك محاولاً من دون جدوى أن يبتسم. أدركت غرايس

أنه يحاول حماية ابنته الوحيدة، إلا أن هذا شحذ تصميمها وعزمها لكي تفعل شيئاً ما. والدها هو بطل بالنسبة إليها، وهو أروع رجل في العالم، لكن المبلغ الهائل الذي اختلسه من المصرف جعل رأسها يدور في دوامة مع أنها فهمت أسبابه ودوافعه. تلك السنوات التي قضاها في الاهتمام بصحة والدتها التي أصيبت بمرض الاضطراب العصبي الوظيفي دمرته تماماً. بحث أنغوس في العالم بأسره طلباً لعلاج لهذا المرض العضال الذي لا شفاء منه. جرب كل شيء أملاً في تخفيف معاناة زوجته المحبوبة، بدءاً من العلاج بالأعشاب الصينية إلى العلاج التكاملي والعلاجات المكلفة في الولايات المتحدة الأميركية.

في النهاية اتضح أن هذه العلاجات من دون جدوى، فسوزان بيريسفورد توفيت منذ عامين، قبل أسابيع قليلة من بلوغ غرايس الحادية والعشرين من عمرها. ومنذ أسابيع قليلة فقط علمت غرايس أن أنغوس حصل على الأموال الطائلة التي احتاجها لعلاج والدتها من المقامرة، كما علمت أن إدمانه خرج عن السيطرة ما دفعه إلى «اقتراض» الأموال لدفع ديونه من المصرف الأوروبي، وهو الفرع البريطاني لمصرف هيريرا.

لم تستطع غرايس إخفاء صدمتها لدى معرفتها بهول ما فعله والدها، فنعق أنغوس قائلاً: «لطالما نويت أن أسدد ما علي، أقسم بذلك. كان بوسعي أن أعيد الأموال التي اقترضتها، وأن أغلق الحسابات المزيفة التي فتحتها من دون أن يعلم أحد بذلك».

أما الآن فهم يعلمون! قام أحد مدققي الحسابات باكتشاف بعض المخالفات، ما أطلق سلسلة من التحقيقات الأكثر عمقاً، وتم التبليغ عن هذه المخالفات إلى رؤساء مصرف هيريرا. لم يكن بوسع غرايس سوى الوقوف جانباً ومشاهدة عالمها وهو ينهار، والأهم من ذلك رؤية والدها يسقط إلى الحضيض.

جرجرت غرايس ذهنها فأعادته إلى الحاضر، تابعت القيادة صعوداً على الطريق التي تحف بها الأشجار على الجانبين، والتي تتلاقى على شكل قوس في

وسط الطريق. لكن ما إن التفت السيارة حول منعطف آخر حاد جداً، حتى شهقت وقبضت على عجلة القيادة. استطاعت أن ترى ببساطة حافة الطريق في الأرض المقطوعة الأشجار، وتخيلت السقوط المروع من فوق حافة الجبل.

تمتمت مقطوعة الأنفاس: «يا إلهي!»

أحست أن كفيها أصبحا رطبين بسبب التعرق حين صدمها إدراكها أن أية خطوة خاطئة يمكن أن تسبب لها الانقلاب بعنف من فوق حافة الهاوية. إنها تكره المرتفعات! أخذ رأسها يدور فيما قاومت الشعور بالغثيان الذي سيطر عليها. أحست غرايس لوهلة بالرغبة في أن تستدير وتعود أدراجها، لكن الطريق بدت ضيقة جداً لدرجة لا تسمح لها بمحاولة الالتفاف بالسيارة نحو الاتجاه الآخر. فضلاً عن ذلك، فكرت بحزن أن لديها عملاً يجدر بها إنجازه: الوصول إلى قصر الأسد، موطن أسلاف عائلة هيريرا.

راحت تصلي لأن يكون الدوق الجديد موجوداً في المنزل. لم تلقَ أي من الرسائل التي أرسلتها إليه جواباً، أما محاولاتها للاتصال به هاتفياً فقد صدها فريق عمله البالغ الفعالية. دفع اليأس بغرايس إلى السفر قاصدة مكاتب المصرف في مدريد، ومن هناك سافرت بالطائرة إلى جنوب غرناطة، حيث تم إعلامها بأن الرئيس يقيم في مقره الخاص في الجبال. أقسمت غرايس بحزن إنها سوف تقابل خافيير هيريرا، أو أنها ستموت في محاولتها لفعل ذلك، وركزت على الطريق الممتدة أمامها. شعرت بالارتياح حين استوت الطريق أخيراً، وحين استدارت بالسيارة حول المنعطف التالي ظهر القصر الشامخ مرتفعاً أمامها. إنها قلعة مراكشية مهيبة. بدت تلك القلعة رمادية وغير مرحبة تحت تأثير رذاذ المطر الخفيف.

راح قلب غرايس يتخبط بقوة حين خرجت على مهل من السيارة.

بدا القصر نموذجاً حقيقياً مؤثراً عن فن العمارة المراكشي. لكن عيني غرايس انجذبتا نحو الباب الأمامي الصلب المنيع، الذي يحرسه من كلا الجانبين أسدان حجريان قابعان بصمت، وهما يراقبانها كما لو أنهما يرغبان بالانقضاض عليها. فكرت مرتعدة أنها لا ترغب بالتواجد هنا عندما يحل

الظلام. لكن الدوق دوهيريرا هو الشخص الوحيد الذي يمتلك القدرة على إنقاذ والدها.

كان المطر الخفيف قد بلل فستانها الخفيف الرقيق باعثاً القشعريرة في بشرتها. هرعت إلى السيارة لتتناول الوشاح الرقيق الذي قذفته إلى السيارة لتأخذه معها في آخر لحظة وهو مصنوع من أجود وأنعم أصواف الكشمير. أقرت غرايس بأسف وحزن أن شراءه هو إسراف وتبذير مفرطين، حتى قبل أن تكتشف مشاكل والدها المالية. لكنه على الأقل يشعرها بالدفء الآن وهي تلفه وتمسك به حول كتفيها.

اندفعت صعوداً على الدرج الأمامي للقصر، وما إن رفعت يدها لتجذب الحبل الخاص بقرع الجرس حتى فُتح الباب فجأة وظهر أمامها شخصان. أدركت على الفور أن أحدهما هو رئيس خدم القصر، أما الآخر فهو رجل متقدم في السن ذو شاربين ملفتين للنظر.

تلعثمت غرايس قائلة: «جئت... لمقابلة الدوق دو هيريرا».

أحست بالامتنان لأنها تتحدث الإسبانية بطلاقة، والفضل في ذلك يعود إلى السنوات التي أمضت خلالها إجازاتها مع عمتها بام في جنوب إسبانيا.

أخبرها الرجل الأكبر سناً بفظاظة: «أنا لا أنصحك بذلك سنيوريتا إذا كنت تخافين على حياتك، فالدوق ليس في أفضل مزاج له».

غمرها الأمل لمعرفتها أن خافيير هيريرا موجود هنا. جل ما عليها أن تفعله هو إقناع رئيس الخدم المتجهم الوجه بأن يسمح لها برؤيته. بعد مرور بضع دقائق كانت غرايس ما تزال واقفة على الدرج. توسلت الرجل للمرة الأخيرة فيما بدأ باب خشب السنديان الثقيل بالانغلاق ليقفل في وجهها: «أرجوك!»

أجابها رئيس الخدم بنفاد صبر قائلاً: «أنا آسف، لكن هذا مستحيل. فالدوق لا يقابل أبداً ضيوفاً غير مدعوين».

- لكن... فقط أخبره أنني هنا... لن آخذ سوى خمس دقائق من وقته.

ارتدت صرخة غرايس اليائسة عن الباب الخشبي الصلب، عندئذ استسلمت بدافع الاحباط إلى رغبتها الصبيانية بركل الباب الأمامي، ولم تفاجأ حين بقي مقفلاً بثبات. بالطبع تم بناء هذا القصر ليقاوم جيشاً من الغزاة، فكيف تستطيع امرأة شابة نحيلة البنية، أن تخرق دفاعات هذا الحصن المنيع؟

غمغمت غرايس متذمرة وهي تطرف بعينيها لتمنع دموعها من التساقط قائلة: «اللعنة عليك، خافير هيريرا!».

يبدو أنه لم يعد أمامها أي خيار آخر سوى الالتفاف بسيارتها لتعود من الطريق الجبلية التي سلكتها نفسها، لكنها لم تقوَ على تحمل فكرة فشلها في تحقيق مبتغاها. إن الدوق دو هيريرا موجود هنا، في الجهة المقابلة لهذه الجدران، ولا بد أن تكون هنالك طريقة ما للوصول إليه وإجباره على الإصغاء إليها.

لطالما كان والدها يغيظها قائلاً إن عنادها الزائد يعوض عن الإنشات القليلة التي تنقصها في الطول. مجدداً حضرتها الصورة الذهنية الواضحة لوالدها الذي أحاطت هالتان حمراوان بعينيه بسبب افتقاره إلى النوم، أما جسده الذي كان قوياً صلباً في ما مضى، فأصبح هزيلاً بسبب الضغوط النفسية وفقدانه الشهية. ليت بمقدورها أن تزيل خوف والدها ورعبه من فكرة إدخاله إلى السجن، عله يصبح قادراً على إخراج نفسه من أساه العميق.

توقفت الأمطار عن الهطول، وبالرغم من أن السماء ما زالت رمادية، إلا أن أشعة الشمس الباهتة كانت تحاول بشجاعة أن تبعث الدفء إلى تلك المنطقة. لاحظت غرايس عبر الباحة الخارجية وجود بوابة ذات قنطرة في الحائط. قالت لنفسها على الأرجح إن البوابة المصنوعة من الحديد مقفلة، لكنها اندهشت حين تمكنت من فتحها بسهولة، فخطت إلى الداخل بسرعة. بدت الحديقة رائعة التصميم ومتميزة جداً، كما لو أنها لمحة من الجنة، ما أثار في نفسها شعوراً مهدئاً مسكناً. عكست سلسلة من البرك المربعة الشكل ذات

المياه الصافية صور أشجار نخيل استوائية. في حين تناثر رذاذ نوافير المياه المنعش عليها مسكناً أعصابها المنهكة. أما الورود التي تطاولت بأعناقها نحو السماء، فقد علقت على وريقاتها المخملية قطرات الماء التي بدت كحبات من اللؤلؤ.

اندفعت غرايس من دون تفكير وقطفت إحدى الورود، ثم أحنت رأسها لتستنشق عبيرها بشغف. للحظات ثمينة أحست أن أعباء همومها ترتفع عن كاهلها. ليتها تستطيع المكوث هنا إلى الأبد، وهي تصغي إلى زقزقة العصافير اللطيفة! تمشت على طول الممرات الضيقة في الحديقة، ناسية أنه يفترض بها أن تبحث عن طريقة لاقتحام القصر. أزاحت بعيداً عن تفكيرها ذكرى بؤس والدها وحاجتها إلى إيجاد الدوق دو هيريرا، إضافة إلى خشيتها من فكرة قيادة السيارة في طريق العودة نزولاً على الطريق الجبلية المنحدرة الملتوية حتى تعود إلى غرناطة. لم تعرف غرايس ما الذي دفع بها إلى قطع حبل تأملها الصامت لبرك المياه. لم يعد هنالك أي صوت... حتى العصافير توقفت عن الغناء. ساورها إحساس غريب بالوخز حلَّ بين كتفيها، كما تصاعد في داخلها شعور بأن أحدهم يراقبها. أدارت رأسها ببطء، وعلقت الأنفاس في صدرها.

كان الرجل واقفاً في ناحية بعيدة من الحديقة، لكن طوله بدا ملحوظاً جداً حتى من هذه المسافة. كان يرتدي معطفاً من اللون الأخضر الغامق اللّماع، يصل إلى ما تحت ركبتيه ويحتك بجزمته الجلدية. أما القبة التي تعلوها قلنسوة فجعلت مظهره أشبه بمظهر أحد المحاربين من العصور الوسطى. جذب الرجل قبعته ذات الحافة العريضة فوق عينيه مغطياً وجهه، فيما استشعرت غرايس قدرته وقوته. لفت انتباهها كلب الدوبرمان النحيل الأسود الواقف إلى جانبه، فأحست بالخوف يتمخّض في أعماق معدتها. هذا الحيوان لا يبدو حيواناً أليفاً لطيفاً ودوداً. لا شك أنه كلب حراسة، أما الرجل فلا بد أنه أحد موظفي الحراسة في القصر.

فكرت أن الخيار الأكثر عقلانية هو بأن تدنو من رجل الأمن هذا فتعتذر

على فعلتها، لكن مخيلتها صورت لها أنه يبدو كقابض للأرواح، لذلك حلت غريزتها مكان تفكيرها المنطقي، فاستدارت حول نفسها وفرت هاربة وهي تصرخ. ألقت نظرة سريعة من فوق كتفيها، فاتضح لها أن الرجل أطلق سراح كلبه وبدأ هذا الأخير يركض عبر الحديقة متجهاً نحوها. راح الدم يتخبط داخل أذني غرايس، وهي تندفع بعنف عبر ممرات الحديقة باحثة بيأس عن مخرج للفرار. كانت الحديقة محاطة من جهات ثلاث بحائط مرتفع، أما من الجهة الرابعة فكان الحائط أقل ارتفاعاً، فيما بدت أحجار الطوب فيه قديمة ومتداعية. كاد الكلب يصل إليها، واستطاعت أن تسمع أنفاسه الخشنة المزعجة تدنو منها شيئاً فشيئاً، كما تخيلت أنيابه الحادة تنغرس في لحمها. انطلقت غرايس بقوة في ممر آخر من ممرات الحديقة، وبدأت تتسلق الحائط القديم بسرعة هائلة متولدة من يأسها.

وفرت لها أحجار الطوب موطئ لقدميها، ما سمح لها بالوصول إلى حافة السور مستخدمة كل طاقاتها وقوتها. طمأنت نفسها أنها باتت بمأمن الآن، أما الكلب القابع في الأسفل فراح ينبح بصوت عنيف شرس. آه! مع القليل من الحظ يمكنها أن تتسلق الحائط فتجتازه إلى الناحية الأخرى حيث الأمان. بعد أن ألقت غرايس نظرة أخيرة على الحيوان المتوحش، علقت إحدى رجليها فوق حافة السور ثم أطلقت صرخة رعب. فخلف الحائط تنحدر الأرض نحو هاوية سحيقة تبلغ بضع مئات من الأقدام. لو رمت بنفسها من فوق السور سوف تموت، أما البديل الوحيد فهو العودة نزولاً نحو الحديقة حيث ينتظرها الكلب ولعابه يسيل.

لم تعد غرايس تستطيع الحراك بعد أن شلّها الخوف، لذا حافظت على توازنها على حافة السور وراقبت الرجل يدنو منها.

- هذا يكفي لوكا!

تمشّى خافيير من دون تسرّع نحو الجهة البعيدة من الحديقة، فنادى كلبه ليعود أعقابه. هناك كانت المرأة - أو الفتاة، كما صحح لنفسه بعد أن ألقى نظرة وجيزة إلى الأعلى- تتعلق بحافة السور كما لو أن حياتها متعلقة بها، وقد

خلا وجهها من أية لمحة من اللون، فبدا شاحباً وسيطرت عليه عينان هائلتان يغمرهما الخوف. لم يشعر خافيير بأقل لمحة من الشفقة عليها. فكر بعبوس أن بمقدورها أن تبقى قابعة هناك طيلة النهار، فهو لن يهتم لأمرها. لقد سئم من أولئك الصحافيين المتطفلين الذين يقتفون تحركاته لرصد الشائعات ونقل الأخبار. أثناء تواجده في المدينة، يقبعون في سياراتهم خارج مكتبه على أمل التقاط صورة أو خبر متعلق به، أو يتجمعون في حشود أمام النوادي الليلية المشهورة مصممين على القبض عليه وهو برفقة إحدى عشيقاته. أما اكتشافه لهذه الصحافية على أراضي قصره فهي آخر إهانة يتقبلها خلال أسوأ يوم في حياته.

سألها خافيير بنفاد صبر: «كيف دخلت إلى هنا؟ وما الذي تريدينه؟».

لم يرَ معها أية آلة تصوير فوتوغرافي، لعلها أسقطتها في الحديقة حين هربت من لوكا. بقيت الفتاة صامتة، فتصلب فك خافيير. إنه ليس في مزاج يسمح له بتحمل الألاعيب، وهو يريدها أن تخرج من أرضه حالاً. أمرها قائلاً: «انزلي! الكلب مربوط برسنه ولن يؤذيك».

بالرغم من ذلك لم يلقَ منها جواباً، لذا ضاقت عيناه وهو يتمعن في بشرتها الشاحبة الباهتة. لاحظ أن شعرها مخبأ تحت وشاح لفته حول رأسها وكتفيها فأصبح كالقلنسوة، لكنه علم بغريزته أنها ليست إسبانية الأصل، فكرر طلبه باللغة الإنكليزية.

امتدت فترة الصمت بينهما، ثم قالت غرايس في نهاية الأمر بصوت بالكاد يتخطى الهمس: «لا أستطيع».

خوفها من الوقوع إلى الهاوية أرعبها بشدة، فانسد حلقها وباتت عاجزة عن الكلام. لم تعد تقوى على الحراك، وبالكاد تمكنت من التنفس.

- سنيوريتا، عليك أن تنزلي.

الحدة التي ظهرت في صوت الرجل اخترقت غمامة الخوف التي غلفت ذهن غرايس، فأدارت رأسها بحذر لتحدق به نزولاً. لاحظ خافيير أن المرأة على وشك أن تصاب بالاغماء. تفحص الحائط بنظرة سريعة، وهو يتلفظ

بشتيمة قاسية. يمكنه أن يتسلق الحائط لينقذها، لكن الخوف إحساس يصعب التنبؤ بتبعاته. إن تحركت مبتعدة عنه، فستسقط على الأرجح من فوق الحافة على الصخور الناتئة في الجهة الأخرى من الحائط. كبح غضبه، ولطّف نبرة صوته قائلاً: «ما من داع لأن تخافي. أنا لن أؤذيك، كما لن يؤذيك الكلب. اقفزي إلى هذه الجهة وسوف ألتقطك».

بغض النظر عن مدى كرهه للصحافيين، إلّا أنه لا يرغب برؤية الفتاة تهوي لتسقط ميتة. ترنحت غرايس وقد أصبحت بشرتها رمادية اللون، فيما أغمضت عينيها وتدلى رأسها بتكاسل إلى الأمام. مدَّ يديه إلى الأعلى وقال لها بنبرة آمرة: «اقفزي بين ذراعي سنيوريتا. سوف تكونين بمأمن معي. ما اسمك؟»

حين هوت غرايس انزلق الوشاح عن رأسها، فتطاير شعرها حول كتفيها كشلال حريري ذي لون بني باهت. أما صوتها فطاف نزولاً نحوه، بحيث همست كلماتها قبل أن تغوص في الظلام قائلة: «اسمي هو... غرايس... بيريسفورد».

لفتها شرنقة ملؤها الدفء بعثت فيها شعوراً مريحاً مهدئاً، وطنّ تحت أذنها قرع متواصل كقرع الطبول. لكن شعورها بالأمان لم يطل كثيراً، فقد تطفلت الحقيقة على ذهنها المستريح حاملة معها ذكرى تلك اللحظات الأخيرة المرعبة، حين تعلقت بالحائط، فواجهتها الهاوية الحادة من إحدى الجهات، ومن الجهة الأخرى شخص غريب لا وجه له يرافقه كلب متوحش شرس. فجأة انفتحت عيناها، فعاد الخوف ليملأ قلبها. تكلمت بصوت بدا مزعجاً جداً لشدة خفوته، إذ قالت: «إلى أين تأخذني؟»

لدى سماعه كلماتها توقف الرجل عن السير، فوضعها أرضاً بغير رفق. كل ما استطاعت غرايس رؤيته لمحة من ملامح وجهه المغطى بحافة قبعته، لكن فكه المربع أعطاها فكرة عن قوته وصلابته. أحست أن الأرض تدور تحت قدميها بشكل ينبئ بالخطر. غمرها شعور بالغثيان والتوت رجلاها، فسقطت على ركبتيها. لم يقم الرجل بأية محاولة لمساعدتها على النهوض، بل

انحنى ببساطة فوقها فيما هي راكعة على العشب الرطب المبلل، فأحست أن تفحصه الصامت لها بدأ يفقدها أعصابها. أما الكلب فجلس عند قدميه. أطلقت غرايس تنهيدة ارتياح خافتة عندما لاحظت أن الرسن مربوط بالطوق الموجود حول عنق الكلب.

قالت وهي غير قادرة على منع الرجفة من صوتها: «لا أصدق أنك أطلقت كلبك في أثري».

ردَّ الرجل بخشونة قائلاً: «أنا لا أحب المتطفلين على أملاك الغير».

جاء صوته رزيناً مهيباً ومنخفض النبرة، لكنه تحدث الإنكليزية بطلاقة بالرغم من لكنته القوية البادية بوضوح. أمالت غرايس رأسها فنظرت إليه بفضول، وقد أزعجتها وقفته المتعجرفة. بالنظر إلى مظهره افترضت أنه أحد رجال الحراسة في هذه الملكية. لكن الرجل راح يحدق بها نزولاً كما لو أنه يمتلك المكان.

زمجر قائلاً: «لماذا جئت إلى هنا؟»

- جئت لمقابلة الدوق دو هيريرا.

أحست غرايس بشكل ما أن وضعها وهي راكعة أمامه ليس لصالحها، لذا استنشقت نفساً عميقاً وأجبرت نفسهاعلى النهوض على قدميها. كانت ما تزال تشعر بالوهن وبفقدان حس الاتجاه، فترنحت بغير ثبات. أما الرجل فلم يعرض أية مساعدة أو مساندة لها، بل راقبها بصمت قاتل.

- لأي سبب؟

صرّت غرايس على أسنانها بحدة لدى سماعها سؤاله، ثم رفعت ذقنها وحدقت به، متمنية لو أن بمقدورها رؤية وجهه.

- لأسباب شخصية.

توقفت عن كلامها وقد انجذبت عيناها نحو ذراعيه القويتين وصدره العريض. لا شك أن هذا الرجل أنقذها من سقوط كان لينتج عنه تكسّر عظامها. تمتمت بصوت أبح: «أشكرك على التقاطي. أقدّر بأن هذه حديقة خاصة، لكنني جئت لمقابلة...».

تشتت حديثها بشكل بائس، فيما تذكرت محاولتها الفاشلة للحصول على مقابلة مع الدوق دو هيريرا المراوغ.

أعلمها الرجل بنبرة متعالية: «الدوق لا يستقبل زواراً غير مدعوين».

بدأ خوف غرايس يتلاشى الآن وأصبحت قدماها ثابتتين على الأرض، فتذكرت السبب الذي دفعها إلى اقتحام الحديقة أصلاً؛ كانت مصممة على إيجاد طريقة للدخول إلى القصر، ومع قليل من الحظ قد يساعدها هذا الرجل الريفي الفظ على تحقيق مبتغاها.

- أنا لست زائرة غير مدعوة. لدي موعد.

قالت غرايس ذلك كاذبة، فانطلق لسانها فوراً لترطيب شفتيها اللتين جفتا فجأة. لم يبدر عن الرجل أي جواب لكن لغة جسده دلت ببساطة على عدم تصديقه، ما تسبب في زيادة انزعاجها. قالت وهي ترفع عينيها الزرقاوين الصافيتين نحوه مبتسمة بتردد: «نعم. وصلت باكراً، وقررت استكشاف أراضي الملكية عوضاً عن الانتظار في السيارة. أنا آسفة. أعتقد أن الدوق قد يكون مستعداً لمقابلتي الآن. لعلك تستطيع مرافقتي إليه؟»

استمر تدقيق الرجل وتفحصه الصامت لغرايس لفترة طويلة. أخيراً اخترق صوته الهواء الساكن فجأة، فقفزت غرايس مجفلة حين سألها: «هل أنت واثقة من رغبتك بدخول قصر الأسد، آنسة بيريسفورد؟»

أهذا تلميح خفيف بالتهديد في صوته؟ لعنت مخيلتها المبالغة في تصوراتها، ثم ردّت بحدة ورشاقة: «بالطبع. سأتبعك».

- تفضلي!

هذه المرة لم يكن هنالك أي شك في وجود النبرة المهينة في صوته، لكن الرجل لم يُضف أي شيء على كلامه، بل استدار على عقبيه ببساطة وبدأ يسير بخطوات كبيرة عبر الحديقة، فيما هرول الكلب إلى جانبه. لم يزعج نفسه ليستدير حتى يتحقق إن كانت تتبعه أم لا، لذلك اضطرت إلى الهرولة حتى تلحق به.

مع دخولهما إلى القصر من باب جانبي كانت غرايس تشعر بالحرارة

وانقطاع الأنفاس. لكنها تبعت دليلها صعوداً على درج حجري شاهق شديد الانحدار. شعرت بالارتياح لأنها لم ترَ أي أثر لرئيس الخدم الفضولي الذي كان قد رفض التماساتها وتوسلاتها حتى تقابل الدوق قبل قليل. فكرت أنها وصلت الآن إلى الداخل، إلى عرين الأسد. حاربت شعورها بالهلع عندما خطت إلى غرفة فسيحة امتلأت جدرانها بالكتب. خمنت غرايس أن هذه الغرفة هي غرفة مكتبة الدوق دو هيريرا. تسلل الخوف إلى عظامها حين تبعها الرجل إلى داخل الغرفة، وارتجف قلبها عندما أغلق الباب خلفه وسمعت طقطقة القفل الخافتة. أخرج خافيير هاتفه النقال من جيب معطفه، فتمتم بضع كلمات عبره، لكن صوته كان خافتاً جداً فلم تفهم ما قاله.

تعمدت غرايس النظر إلى ساعة يدها قائلة: «هل سيصل الدوق خلال وقت قريب؟»

رد خافيير بصوت حريري قائلاً: «أعدك أنك لن تضطري إلى الانتظار مطولاً، آنسة بيريسفورد».

مجدداً التقطت شيئاً من السخرية في صوته فازدادت خشيتها منه. راقبته وهو يفك أزرار معطفه، ثم يهز كتفيه ليسقطه عنهما، فانجذبت عيناها إلى بنيته الجسدية الرائعة. كان يرتدي سروالاً أسود ضيقاً، فيما كشفت قميصه البيضاء المفتوحة عند العنق عن عنقه الطويل الأسمر اللون. أما في قدميه فقد انتعل جزمة جلدية طويلة الساق. شكله هذا ذكر غرايس بشكل بارون من العصور الوسطى.

- سوف تصل الشرطة إلى هنا خلال وقت قصير.

أبلغها خافيير ذلك بابتسامة خالية من أي دفء شقت مساحات وجهه الصلب.

- الشرطة؟

أحست غرايس بالصدمة إلى درجة أنها فقدت لوهلة القدرة على إيجاد الكلمات المناسبة. أقرت أن ردة فعلها الجسدية تجاه هذا الشخص الغريب الواثق من نفسه أمر صعقها إلى درجة الغباء. فكرت بحذر أن الوسامة بالكاد

تكون وصفاً ملائماً له. بدا وجهه منحوتاً إلى حد الكمال مع أنه متعجرف فظ إلى حد بعيد، كما أن عظمتي خديه بدتا حادتين. كذلك تُمت بشرته الذهبية كلون الزيتون بحاجبين أسودين وشعر أسود كجناحي الغراب. أما عيناه السوداوان الكهرمانيتان فاتقدتا بالنار وهما ترسمان دربا وهمياً فوق كل إنش من جسدها. أحسّت كما لو أن الرجل يقوم بتفحصها بعناية تحت المجهر، فأثار هذا الأمر غضبها، ودفع باللون الأحمر نحو وجنتيها بشدة. تكلمت بشكل لاذع، محاولة إخفاء شعورها بالاحراج بسبب ردة فعل جسدها الغدّار، فقالت: «أنت لست البستاني. أليس كذلك؟ افترضت أنك . . . لا تقل لي إنك أنت الدوق دو هيريرا؟»

رفع خافيير أحد حاجبيه باستمتاع ساخر، وقال: «أنت يا آنسة بيريسفورد كاذبة، كما أنك سارقة».

توقف لبرهة ثم تمتم مضيفاً: «لا بد أن تلك العادة تجري في دماء عائلتكم».

ادركت غرايس مرتعبة أن الرجل هو الدوق نفسه وأنه عرف من تكون. استنشقت نفساً عميقاً مكابدة العناء حتى تجد الكلمات المناسبة لتفسير زيارتها هذه. لكن بدا لها كأن دماغها تداعى، ولم تقوَ على التوقف عن التحديق به. وجهه ذو الزوايا الحادة، وانحناءة رأسه المتعجرفة، فضلاً عن عينيه الغريبتين بلونهما الذهبي، كلها عوامل اجتمعت لتترك تأثيراً مخدراً عليها.

قالت متلعثمة: «أقر أنني. . . تفوهت بكذبة صغيرة، لكنني لست بسارقة».

احمرت وجنتاها خجلاً حين تذكرت القصة التي لفقتها حيال حصولها على موعد للقاء الدوق. سيصعب عليها إقناع خافيير هيريرا بأنها جديرة بالثقة.

- أحقاً؟ إذاً من منحك الإذن بالسرقة من حديقتي؟

تمشّى خافيير عبر الغرفة ثم توقف على مقربة شديدة منها، حتى إن أحاسيسها التقطت النكهة الحادة لعطره اللاذع. وقفت غرايس مبهورة

مخطوفة الأنفاس فيما قام بتمرير إحدى أنامله بدهاء، نزولاً من فكها وصولاً إلى أسفل عنقها. انحبست أنفاس غرايس، فأحست بالدوار بسبب افتقارها للأوكسيجين. حدقت به عاجزة عن الكلام، ثم شهقت عندما انتزع منها فجأة الوردة المحشورة في عروة زر الفستان.

همست: «إنها مجرد وردة واحدة».

أما خافيير فتمتم متهكماً: «بالطبع! ما قيمة سرقة وردة واحدة في حين أن والدك سلبني مسبقاً ملايين الجنيهات؟»

أطلقت غرايس أنيناً ينم عن اليأس حين صدمها مجدداً هول الجريمة التي ارتكبها والدها، فقالت: «آه، يا إلهي! أدرك أن الأمر يبدو سيئاً. . .».

- لا يبدو الأمر سيئاً فقط آنسة بيريسفورد، بل يبدو مريعاً.

بدا خافيير كالأسد الذي ينتظر الانقضاض على فريسته، فيما بدت غرايس كالفريسة التي دفعها غباؤها إلى الدنو كثيراً منه. تمتمت: «أنا آسفة».

ابتلعت الدموع التي سدت حلقها، فيما تذكرت مدى ضخامة المبلغ الذي اختلسه أنغوس. إنها ثلاثة ملايين جنيه استرلينياً قام بتحويلها خلال مدّة من الزمن إلى حسابات مزيفة. ترافق انزلاق والد غرايس إلى الاحباط والأسى العميق مع اعتقاده المهووس بأن ضربة حظ واحدة يحظى بها على طاولة الروليت سوف تمكنه من تغطية أموال الدائنين ودفع الأموال التي اقترضها من المصرف.

استهلت غرايس كلامها قائلة: «أدرك أن والدي ارتكب خطأ شنيعاً لكن هنالك أسباباً دفعته إلى ذلك».

تشدّق الدوق دي هيريرا قائلاً: «أنا واثق أن لديه أسبابه، وأن بإمكانه إطلاع القاضي عليها».

رن جرس الهاتف الموضوع على مكتب خافيير فالتقط السماعة وأصغى للحظة، ثم أعادها إلى مكانها قبل أن يوجه لغرايس ابتسامة قاسية أخرى. أدركت غرايس فطرياً بأن ذاك الاتصال أعلمه بوصول الشرطة، فغمرها الهلع. هذه هي فرصتها الوحيدة للدفاع عن قضية والدها، وهي لن تستسلم

من دون مقاومة.

قال خافيير ببرود: «أدهشني لقاؤك والتعرف بك، آنسة بيريسفورد. لكنني أخشى أنه حان أوان رحيلك».

- أرجوك! يجدر بك أن تصغي إلي. إن والدي...

- يستحق كل ما سيحصل معه.

كان خافيير قد وصل إلى الباب، ولغة جسده تحذرها من أن صبره وصل إلى حدّه الأقصى، لكن غرايس يائسة جداً.

- إنه مريض، مريض عقلياً. لم يكن يدري ما يفعله.

أجابها خافيير: «آه! ما بالك؟ أنغوس بيريسفورد استغل مكانته كمدير للمصرف، فأخذ يحوّل الأموال إلى حسابات زائفة خلال الثمانية عشر شهراً الأخيرة، وهو يدرك تماماً ما يفعله».

أطبقت يد خافيير على مقبض الباب، لكن قبل أن يتمكن من فتحه اندفعت غرايس بقوة فاستندت إلى الباب الخشبي. تضرعت قائلة: «لم يتمكن والدي من إيجاد طريقة أخرى. أرجوك... امنحني خمس دقائق من وقتك، ودعني أشرح لك الأسباب التي دفعته لارتكاب فعلته هذه».

اعتقدت غرايس للحظة كادت توقف قلبها أنه سوف يجرها بالقوة بعيداً عن الباب، بعد أن أطبق يده حول معصمها بقبضة مؤلمة، لكن فجأة سُمعت طرقة حادة من الجانب الآخر للباب.

تكلم خافيير بإيجاز مستخدماً لغته الأم، وهو غير مدرك أن بمقدور غرايس أن تفهم سؤاله وجواب خادمه الذي أبلغه بوصول الشرطة وبأنهم ينتظرون في البهو.

لقد حذرها المحامي بأن والدها سوف يواجه حكماً بالسجن لمدة طويلة، وما من شيء يمكن إنقاذه الآن. فجأة أحست بالارتخاء في عظامها، أما الدموع التي راحت تتجمع في عينيها منذرة بالانهمار منذ ارتعابها السابق في الحديقة، فبدأت تنهمر بصمت نزولاً على وجنتيها.

٣ - خدعة أم حقيقة؟

حدق خافيير بالجدولين الصغيرين اللذين تدفقا نزولاً على وجنتي غرايس، وفكر بازدراء أن النساء غالباً ما ينجحن في تحقيق مآربهن عندما يلجأن إلى ذرف الدموع. تساءل كيف يستطيع الجنس الآخر أن ينتقل إلى البكاء والدموع في الوقت المناسب. ما زال هذا الأمر يدهشه حقاً.

بلغ خافيير الخامسة والثلاثين من عمره، وهو يعيش حياته بنمط سريع جداً بكل ما تحمل الكلمة من معاني. إنه يهوى السيارات السريعة والعلاقات الغرامية الأكثر سرعة. معظم علاقاته لم تتجاوز مرحلة الانطلاق، فاستمرت لمدة ليلة أو اثنتين. تعرف من خلال هذه العلاقات على كل أساليب النساء، وشاهد كل أنواع الحيل التي تستخدمها المرأة في محاولتها لجعل الأمور تسير على هواها، إلّا أن البكاء هو أسوأ ما ينفره من المرأة من بين جميع أساليبها الأخرى. لماذا إذاً جعله منظر دموع هذه المرأة يشعر كما لو أن أحدهم طعنه بسكين في أحشائه؟ ثمة شيء في عينيها الزرقاوين الغامقتين الطافحتين بالدموع يؤثر به. أحس برغبة في أن يجذبها إلى صدره فيمرر أنامله في شعرها البني الحريري... يجدر به أن يطردها على الفور. يجدر به أن يسلّمها إلى الشرطة ويقاضيها بتهمة التعدي على أملاكه من دون إذن. لماذا تراه يتردد في ذلك؟ منذ لحظة معرفته بهوية هذه المرأة أخذت مشاعره تتأرجح بين الغضب الشديد وإحساس آخر؛ إنها رغبة غريزية نوعاً ما، ولا شك أنها المسؤولة عن عدم قدرته على إبعاد عينيه عنها.

لطالما فضل خافيير النساء الطويلات القامة الأنيقات المظهر اللواتي يتمتعن بأرجل طويلة وقامات رشيقة، أما غرايس بيريسفورد فهي قصيرة

القامة نحيلة. إنها امرأة غير مميزة ببشرتها الباهتة الفاتحة اللون وشعرها البني الذي تتخلله مشحات من اللون الذهبي الفاتح. غرايس ليست من النوع الذي يلفت النظر، ومع ذلك فهنالك شيء ما في وجهها... شيء من الصفاء والرصانة. لعل تلك الرسالة المخفية في عينيها الزرقاوين المدهشتين أو الابتسامة المراوغة التي عرضتها أمامه قبل قليل هما المسؤولتان عن الألم الذي ينتابه في أحشائه؟

قال ببرود وهو يجبر نفسه على التمشي بتكاسل وغير اكتراث نحو النافذة: «أمامك دقيقتان! مع ذلك يجدر بي أن أحذرك بأن لدي فكرة جيدة عن الأسباب المؤدية إلى مشاكل والدك المالية، ولا أعتبرها مبرراً لاستغلاله الثقة التي وضعتها فيه».

قالت غرايس بإلحاح: «ألا تعلم أنه مصاب بالاكتئاب المرضي، وأنه لا يستطيع السيطرة على نفسه؟ كما أنه ضحية لمجال المراهنة المتوفر عبر شبكة الإنترنت».

- إن قلبي يدمي من شدة الألم.

سخرية خافيير استفزت أعصاب غرايس، فمشت عبر الغرفة لتقف أمامه بحزم وصلابة. حين التوى حاجبا خافيير دلالة على عدم تصديقه قالت بشراسة: «والدي رجل طيب. إنه رجل محترم. منذ بضع سنوات قام ببعض الاستثمارات، لكنه لسوء الحظ خسر الكثير من الأموال».

ردّ خافيير بنبرة لاذعة: «لست أفهم لماذا يجدر بي أن أعاني بسبب تهوره».

- كان يشعر باليأس. والدتي كانت مريضة جداً، وكان هو مستعداً لفعل أي شيء... أي شيء... من أجل مساعدتها.

لم تتحرك تعابير وجه خافيير الدالة على لامبالاته، فمررت غرايس إحدى يديها فوق وجهها من فرط يأسها. إنها ليست قادرة على الوصول إليه ليتفهمها، كما أن الوقت بدأ ينفد منها.

تابعت كلامها متلعثمة فقالت: «بدت له المراهنات السبيل الوحيد

للخروج من مأزقه. كسب مرة أو اثنتين، فاعتقد أن الحظ سيظل حليفه. لكنه عوضاً عن ذلك بدأ يسجل على نفسه ديوناً هائلة».

تابعت بصوت خافت: «لم يعد لديه أمل بأن يسددها. أما بعد وفاة والدتي، فغمره الألم والأسى الشديدين. الشيء الوحيد القيم الذي تبقى لدينا هو منزلنا الذي كان ملكاً لوالدتي فأصبح ملكه بعد وفاتها. هدّده الدائنون بالاستيلاء على منزل «ليتل كوت» فأراد بيأس التمسُّك به... لأجلي».

قالت ذلك بصوت مخنوق، محاربة دموعها التي أوشكت أن تنهمر. تابعت قائلة: «عندئذ فعل أنغوس ما فعله. أخذ الأموال لأنه رغب بالاحتفاظ بالمنزل الذي أحبه».

تدفقت الدموع من عيني غرايس، ففركت عينيها بظاهر يدها. لم ترغب بالبكاء، لاسيما أمام هذا الرجل الذي بدا كأن قلبه منحوت من الصخر الصلب.

علق خافيير بنبرة تدل على الملل: «إنها قصة مؤثرة، ولا شك أنها تتضمن شذرات من الحقيقة. أنا أصدق أن أنغوس سرق الأموال من أجلك، فأنت تتمتعين بذوق مرهف آنسة بيريسفورد».

طالبته غرايس وهي تشعر بالحنق: «كيف يمكنك أن تعرف ذوقي؟»

رماها خافيير بنظرة ازدراء وقال: «من الطبيعي أن أطلب تقريراً مفصلاً عنكما، لذا أنا أعرف كل ما يجب أن أعرفه عنك. يبدو أنك تحبين المقتنيات الثمينة».

أعلمها خافيير بذلك ببرود، وتابع: «أنت تقتنين كلبين أصيلين، تأخذينهما إلى صالونات التمشيط والتزيين الخاصة بهما».

فتحت غرايس فمها لتعارضه، لكنه تابع قائلاً: «كما أنك تابعت دراستك في جامعة خاصة متميزة، من دون أن نذكر تلك الشقة الفخمة التي كنت تقطنينها أثناء وجودك في الجامعة».

ردت غرايس بحزم: «دفعت إيجار الشقة من أموال بوليصة تأمين تركها لي جداي...».

راح الغضب يفور في داخلها كالحمم البركانية. لكنها لو أطلقت هذا الضغط الكامن في داخلها، فذلك سيفسد كل فرصها الساخة لمساعدة والدها. لذا تكلمت بهدوء قائلة: «. . .وأنا بالفعل عملت جاهدة لأجل الحصول على شهادتي».

- في مجال تاريخ الفن؟ أنا واثق أنها شهادة مفيدة جداً لك.

الاستهزاء البادي في كلمات خافيير، جعل غرايس تتوق إلى صفعه، لكنها ردت ببرود قائلة: «بما أنك تعرف الكثير عني، أنا واثقة أنك عرفت أنني أدير متجري الخاص بالتحف الأثرية القديمة».

ردّ خافيير: «أعرف أنك تحبين لعب دور البائعة في مؤسستك الصغيرة الخاصة في برايتون، لكن متجرك «ركن الكنوز» بالكاد يعتبر عملاً ناجحاً. أليس كذلك؟»

عبست غرايس، فتابع هازئاً منها: «آه، بربك! أنت بالكاد تنتجين ما يكفي من المال ليغطي رأسيكما أنت ووالدك».

احمرت وجنتاها لدى سماعها ملاحظات خافيير حيال عملها الحديث العهد، فتمتمت قائلة: «صحيح أن أرباحي لم تصل إلى المستوى الذي أملته، لكن بناء سمعة جيدة في مجال العمل بالتحف الفنية يتطلب بعض الوقت».

قبل أن تفتح غرايس متجرها الخاص أحبت عملها كموظفة مبتدئة في مجال الفهرسة والتوثيق لدى دار مرموقة للبيع بالمزاد العلني. لكن حياتها في لندن اصطدمت بعقبة مفاجئة كادت تحطمها، وذلك حين أنهت خطوبتها بريتشارد كونيتين. خيانة ريتشارد جعلتها محطمة الفؤاد، فعادت إلى برايتون حيث افتتحت «ركن الكنوز» بمساعدة والدها. لكن الأعمال سارت ببطء خلال العام الأول، ولم يبق لديها سوى القليل من المال بعد دفع الفواتير المتوجبة عليها، لذا سمحت لوالدها بمساعدتها مالياً في بعض المناسبات. لطالما استمتعت غرايس بنمط حياة مريح جداً، لكنها أحست بشعور سيء عندما أدركت أن والدها دفع ثمن هذا الرخاء بواسطة الأموال التي سرقها من المصرف. أحست بالسقم من شدة الخجل والحرج، فرفعت عينيها نحو

خافيير الذي راح يراقبها من دون أن تظهر أية ملامح على وجهه. بدت عيناه الذهبيتان محجوبتين برموشه الطويلة، فلم تظهرا أي لمحة عما يجول في خاطره. تكلمت بصوت أبح قائلة: «يجدر بي أن أشاركه في تحمل اللوم على هذه الورطة المريعة التي وقع بها. والدي اختلس من المصرف، ليس فقط لأجل علاج والدتي، بل لأنه لم يرغب بحرماني من نمط العيش الذي كنت معتادة عليه. لا يمكنك أن تتصور كم يجعلني هذا الأمر أشعر بالسوء».

تشدق خافيير بسخرية: «أتصور أنك منزعجة جداً لأنه يتوجب عليك تغيير نمط حياتك. لا بد أن فقدانك للمصدر الأساسي لمدخولك أمر مزعج جداً وغير مريح بالنسبة لك. لكنني أخشى أن مصرفي - وبفضل خفة يدي والدك وطولهما - لم يعد مستعداً لتغطية نفقات مصروفك المفرط».

تملك الغضب الشديد غرايس، وظهرت نبرة حادة في صوتها حين قالت: «أتشير إلى أنني كنت أعلم بما يجري؟»

وجه إليها نظرة باردة قائلاً لها: «هل تتوقعين مني أن أصدق بأنك ما كنت تعلمين؟ أنا لست غبياً آنسة بيريسفورد. يبدو بوضوح أنك تحركين والدك كما تشائين بمجرد حركة من إصبعك. أما الآن، ومع انهيار عالمك الصغير المشبع بالدلال والرفاهية، فقد أصابك الهلع».

أكمل بوحشية: «ما الذي أملتِ بتحقيقه عبر مجيئك إلى هنا؟ أتتوقعين مني التغاضي عن اختلاس مبلغ ضخم كهذا؟ قد تجدي دموعك نفعاً حين تستخدمينها مع والدك، لكنها لا تؤثر بي مطلقاً».

أضاف بخشونة فيما توجهت نظراته نحو الساعة المعلقة على الحائط: «انتهت الدقيقتان المخصصتان لك».

خاطبته غرايس بهلع قائلة: «جئت لأعرض عليك تسديد الأموال التي أخذها والدي منك. وافقت على بيع المتجر ومنزل «ليتل كوت». إذا جمعت المبلغ الذي سأحصل عليه مع الحصص التي تركتها لي والدتي، يمكنني أن أجمع مليوني جنيه».

سألها خافيير ببرود: «وماذا عن المليون الآخر؟»

- أنا أتحدث الإسبانية بطلاقة. ربما... يمكنني العمل في المصرف إلى أن يتم تسديد الدين... من دون راتب بالطبع.

أضافت غرايس كلماتها الأخيرة بتسرع بعد أن رمقها خافيير بنظرة استهزاء. مالبث أن صرح بخشونة: «يا إلهي! هل تظنين أنني قد أسمح لك بالبقاء على مقربة من مصرفي؟ يكفيني فرد واحد من آل بيريسفورد. ثم... كيف يمكنك أن تعيشي من دون أي مدخول؟ تسديد مبلغ مليون جنيه يتطلب أعواماً وأعواماً، حتى لو حسمنا الفائدة المتراكمة. إن الفكرة سخيفة ومضحكة. لا شيء لديك يمكن أن يثير اهتمامي ولو بشكل ضئيل».

انزلقت نظراته سريعاً فوق جسدها كأنه يصرفها من أمامه. بالرغم من كل شيء، لم تقوَ غرايس على منع ارتعادة من العبور خلال جسدها. ما خطبها؟ كيف عساها سمحت لهذا الرجل من بين كل الرجال أن يؤثر فيها إلى هذا الحد؟ إنها بالكاد تستطيع أن تفكر بصواب.

فكرت غرايس أنه يجدر بها أن تركز على إنقاذ والدها من الحكم الذي سيودي به إلى السجن. لا شيء آخر يهمها، لا سيما ذاك الاحساس الغريب المشابه لرفرفة الفراشات في معدتها، والذي انتابها عندما تحرك خافيير عبر الغرفة سائراً نحوها.

همست قائلة: «والدي سينهار لو تم إرساله إلى السجن. جعلته وفاة والدتي رجلاً محبطاً مكسورالفؤاد، ولا أظن أنه يستطيع تحمل المزيد من الصدمات. أنا أخشى بأنه قد ينهي حياته بيده، لذا أتوسل إليك كي تظهر اللين والتساهل معه».

ارتعش فم غرايس فعضت على شفتها السفلى بقوة. الدوق دو هيريرا قال لها للتو إن الدموع لا تؤثر فيه، لذا فهي بحاجة لأن تكون هادئة ومتحكمة بمشاعرها. تابعت تقول: «سوف أفعل أي شيء تطلبه، إذا وافقت على عدم ملاحقته قانونياً».

ارتفع حاجبا خافيير وقد بدا استمتاعه واضحاً. فسألها: «أي شيء؟ هل يجدر بي أن أفهم أنك تعرضين خدماتك؟ كم ليلة من الشغف يمكنها أن

تعوضني عن المليون جنيه برأيك؟»

سمح خافيير لعينيه بأن تتأملا جسدها ببطء، ملاحظاً وجنتيها القرمزيتين، كما لاحظ ارتفاع صدرها وهبوطه بسبب الهلع.

ردت غرايس بكلمات لاذعة: «لم أعنِ... ذلك! بل أملت أن نتوصل إلى اتفاق من نوع ما...»

قطعت كلامها وقد أدركت بمرارة أنها لا تملك أي شيء ثمين لتعرضه على دوق مليونير باستثناء جسدها. لكن كيف عساه تجرأ على الاعتقاد بأنها تعرض عليه ذلك الأمر؟ أغمضت عينيها بضعف حين تقدم خافيير ليقف على مقربة منها. اقتحمت أحاسيسها رائحة خافيير وتسللت إلى أنفها رائحة عطر مسكي خفيف. بدأت الدماء تتدفق بقوة في عروقها فترنحت مائلة نحو خافيير بارتباك واضح.

التمعت عيناه الذهبيتان فيما اقترح بصوت حريري: «العلك لن تجدي معاناة في مشاركتي السرير، فما أراه في عينيك المعبرتين يدعوني إلى الاعتقاد بأنك متلهفة لذلك».

استنشقت غرايس الهواء بحدة، ثم همست وهي تتلوى خجلاً: «أنت مخطئ في ذلك».

تراجعت إلى الوراء خطوة، لكن خافيير استطاع الامساك بذقنها، ثم رفع وجهها بحيث لم يعد لديها أي خيار سوى ملاقاة نظراته.

- أنا لست أعمى، آنسة بيريسفورد. يمكنني أن أرى كيف يسودّ لون عينيك حين تنظرين إلي، كما أرى ارتعاشة جسمك.

قال ذلك متمتماً وقد تبدلت نبرة صوته فجأة فصارت مخملية ناعمة، ثم تابع: «كلانا مدركان لهذا الانجذاب المتبادل بيننا. و... دعينا نواجه الأمر، فهناك أساليب أسوأ من هذه لكسب المعيشة».

يا إلهي! هل يتكلم بجدية؟ أتراه حقاً يقترح بأن تصبح هي عشيقته؟ أحست بأناملها تستحكها حتى تصفع تلك التكشيرة المتعجرفة البادية على وجه خافيير، فانفجرت تقول بكلمات لاذعة: «هذا خيار لن آخذه أبداً بعين

الاعتبار. أفضل أن أموت أولاً».

أطلقت قهقهة خافيير الخافتة اللهب في أعصاب غرايس. ثم قال ساخراً: «إذاً، من حسن حظنا معاً أنني لا أميل إلى العذارى اللواتي يقدمن أنفسهن كأضاحي».

طرفت غرايس بعينيها، وغمر اللون الأحمر وجنتيها. كيف عرف أنها عذراء؟ هل استطاع استنتاج ذلك؟ هل طُبعَت جملة «لم تُلمس قط» كالوشم فوق جبهتها؟

أعلمها خافيير بتعجرف: «أنا لم أجرِ المقايضات أبداً من قبل بهدف الحصول على هذه الخدمات، ولا نية لي مطلقاً بأن أبدأ الآن».

استقرت يده بثقل على كتف غرايس، فأدارها بحزم نحو الباب، قائلاً: «لقد هدرت وقتي بما فيه الكفاية، لذا أقترح أن تعودي إلى منزلك وتوظفي خدمات محام جيد. أنغوس سيكون بحاجة إليه».

منطق غرايس حذّرها بأن الصمت هو خيارها الأفضل للحفاظ على عزة نفسها. لكنها أحست أن عزة نفسها ممزقة، فهي لم تشعر بغضب مماثل أبداً طيلة حياتها. قذفت الكلمات نحو خافيير كتيار غاضب، لأنها فشلت بتغطية خيبة أملها لفشلها في مساعدة والدها، فقالت له: «أنت عديم القلب تماماً. أعلم أن أنغوس أخطأ بفعلته، وهو يعرف هذا أيضاً. لو كان بمقدورك أن تراه، لأدركت أن الشعور بالذنب دمّره. لكنه أخذ هذه الأموال لأنه لم يستطع رؤية أي سبيل آخر».

ارتعش صوت غرايس بسبب الأحاسيس المريرة، فيما تذكرت الأسابيع الأخيرة الصعبة من حياة والدتها، وتذكرت حزن والدها الشديد لأنه لم يتمكن من إنقاذ محبوبته سوزان.

عبّرت تعابير وجه خافيير الضجرة عن قلة اهتمامه، فاستسلمت غرايس وقالت له بمرارة: «أنت لا تملك أي فكرة عن الحياة الواقعية. أليس كذلك؟ فأنت وُلدت وريثاً لثروة هائلة لا يمكن تصورها، وتقبع هنا في قصرك حيث تلعب دور الحاكم المسيطر على الآخرين. أتعلم شيئاً؟ أنا أشعر بالأسف

عليك، فأنا لا أظن أنك اختبرت الحب أو أن أحدهم أحبك يوماً».

اقترب حاجبا خافيير من بعضهما في عبوس، لكنه فتح الباب ودفع غرايس نحو الرواق. كشفت ابتسامته الواسعة عن أسنان بالغة البياض. قال لها: «ربما أنت على صواب. لكن دعيني أؤكد لك أن هذا النوع من العلاقات مع الناس يناسبني تماماً. وداعاً آنسة بيريسفورد».

- مهلاً!

كاد الباب ينغلق، فحشرت غرايس قدمها بسرعة في الفجوة وهي تدرك تماماً كم يسهل على خافيير أن يسحق عظامها. سألته بيأس: «هل تريدني أن أتوسل؟ أهذا هو الأمر؟ سوف أفعل ذلك إن كان هذا الأمر ينقذ والدي».

رمت عزة نفسها جانباً، وسقطت على ركبتيها فيما قالت: «لن أسمح بأن يدخل والدي السجن. لا بد أن تكون هنالك طريقة ما يمكنني أن أفيدك بها... سوف أطهو، أنظف...».

ألقت نظرة على طول الرواق نحو الأرض الحجرية التي بدت كأنها تمتد لأميال، وتابعت: «سوف أنظف أرضيات منزلك. سوف أفعل أي شيء... ما دام لا يخرج عن حدود الأخلاق».

عضت غرايس بقوة على شفتها السفلى إلى أن أحست بطعم الدم في فمها وهي تحدق بخافيير راجية إياه أن يمنحها فرصة. تصلب فك خافيير وأخذت عيناه الذهبيتان تخترقان جلدها وتحرقانه، فيما سمح لنظراته أن تمرّ بشكل متراخ فوق فستانها الصيفي الأصفر. بدت له روح البراءة التي تتمتع بها مثيرة للاهتمام، إلّا أن المنطق كان يقول له بأن ذلك لا يمكن أن يكون حقيقياً بالفعل. بحسب التقارير التي وصلته عنها، علم خافيير أن غرايس حظيت بنصيب لا بأس به من العلاقات العاطفية، وأنها كانت على علاقة مع سمسار ناجح في مجال التأمين يدعى ريتشارد كونيتين. إنه يكبرها بعدة سنوات، ويتمتع بسمعة في أرجاء لندن تقول إنه زير نساء. يقول التقرير إن غرايس كانت مخطوبة إلى كونيتين لفترة وجيزة، ولا بد إنهما كانا عشيقين. لماذا عساها إذاً تزعج نفسها بادعاء الخجل كالعذارى؟ ولماذا بحق الجحيم لم

يتخلّص منها بكل بساطة؟

استفهم خافيير بخشونة: «لماذا جئت إلي؟ لماذا لا تعرضين...»

تمهل بالكلام سامحاً لعينيه بالتباطؤ وهما تتأملانها، ثم تابع: «... خدماتك على رجل ثري آخر؟»

أجابت غرايس ببلادة ذهن وفظاظة: «لقد نفدت مني الخيارات. سينيور هيريرا، أنا جدية بخصوص تسديد جميع ما أخذه أنغوس من أموال... كل قرش منها».

أضافت بشراسة عندما رأت أن خافيير ليس متأثراً بكلامها: «لا أعرف كيف سأفعل ذلك بعد، لكنني سوف أسدد ديون والدي بشكل ما. جل ما أطلبه هو أن تمنحني الوقت، وأن تعطيني موافقتك بتسوية الموضوع خارج إطار المحكمة».

غمر خافيير شعور بالانزعاج لسبب ما لدى مشاهدته منظر غرايس راكعة أمامه، فأطلق شتيمة ثم اندفع مبتعداً عنها. صوت المنطق يقول له إن غرايس فاسقة أنانية أجبرت والدها على استغلال موقعه في المصرف لتحافظ على نمط حياتها المبذر المسرف. لكنها تبدو لطيفة حقاً حين تنظر إليه بهاتين العينين الواسعتين ذات اللون الياقوتي الأزرق. من جهة أخرى، سلّم خافيير بأن غرايس تتمتع بروح مميزة. ولا بد أنها تحب والدها حباً جماً، كي تأتي إلى هنا للدفاع عن قضيته. إنها لا تستحق احترامه أو تعاطفه، لكن ما أزعجه هو إحساسه بهذين الشعورين. فجأة تسللت إلى ذهنه فكرة؛ إنه ليس بحاجة إلى طباخة أو إلى عاملة تنظيف، لكنه بحاجة إلى زوجة. التوى فمه في ابتسامة ساخرة ما إن تذكر الشرط الذي فرضته وصية جده عليه.

تكلم خافيير ببرود وهو مدرك للاحساس الغريب الذي يعتمل في صدره، فيما راقبها وهي تنهض على قدميها مرتعشة. قال لها: «انهضي آنسة بيريسفورد. أتقولين إنك مستعدة للعمل لأجلي مقابل إسقاطي لكل الإجراءات القانونية التي اتخذتها ضد والدك؟»

بدأ الأمل يتسلل إلى صدر غرايس فيما تعثرت وهي تتوجه إليه. طمأنته

مؤكدة بحماس: «نعم. قلت لك إنني سوف أفعل أي شيء».

ساد بينهما صمت يشوبه التوتر، إلى أن تكلم خافيير أخيراً فقال: «في تلك الحالة أفترض أنك لا تمانعين في أن تصبحي زوجتي؟»

تصريح خافيير الخالي من المشاعر قلب عالم غرايس رأساً على عقب. جذبت الهواء بصعوبة إلى داخل رئتيها، ثم تمتمت بصوت كئيب: «أنت تمزح. أليس كذلك؟»

بدأت الدموع تخز عينيها وهي تتوقع أن تسمع ضحكته الساخرة. لكن كلماته التالية جعلتها ترفع رأسها. أعلمها خافيير بإيجاز: «هذه ليست مزحة، فأنا في موقف لا أحسد عليه. يفترض بي إيجاد زوجة قبل عيد مولدي التالي، وعلي أن أبقى متزوجاً من المرأة التي أختارها لمدة سنة».

تمتمت غرايس وقد أصابها الذهول: «ومتى يحين عيد مولدك؟»

- بعد شهرين من الآن.

- إذاً، فالأمر مستعجل إلى حد بعيد.

بدا لغرايس أن هذا الموقف بأسره يميل إلى السوريالية، وأحست كما لو أنها تائهة في صفحات كتاب «أليس في بلاد العجائب».

راح خافيير يراقبها مشككاً بعينيه الذهبيتين المدهشتين. بدت غرايس مدركة بقوة للارتعاش الذي انتابها بسبب الانجذاب الذي تردد بينهما. أحست لوهلة برغبة في الهروب من هنا، لكن النبرة الآمرة البادية في صوته منعتها من ذلك.

- اجلسي آنسة بيريسفورد. أفترض أنه تجدر بي مناداتك غرايس بما أننا أصبحنا مخطوبين.

ردت غرايس بنبرة لاذعة وقد أغضبها أسلوبه المتسلط: «أنا لم أوافق بعد».

رماها خافيير بنظرة تنم عن الضجر، وقال: «لكنني ظننت أن الخيارات نفدت منك».

- نعم. إنها كذلك، لكن يبدو أنك في وضع مماثل.

جلست غرايس على إحدى الكراسي وهي تشعر بالامتنان، محاولة استعادة رباطة جأشها. أدركت بفضل حاستها السادسة بأن تعابير وجه خافيير الباردة اللامبالية هي مجرد ستارة لما يخفيه من الاحباط الداخلي. يبدو أنه مجبر على إيجاد زوجة لسبب تجهله، لذا فهو بحاجة إليها بقدر ما هي بحاجة إليه، وهذا الأمر يضعها في موقع قوي يسمح لها بالمساومة.

سألته: «لماذا يجدر بك أن تتزوج؟»

لبرهة قصيرة اعتقدت أنه سيرفض الرد عليها. توهجت عيناه بغضب مفاجئ، ثم قال: «بحسب شروط وصية جدي يجب علي أن أتزوج، وإلا فإنني سأفقد حقي في إدارة مصرف هيريرا لصالح نسيب لي».

أخبرها ذلك فيما بدا صوته ممزوجاً بالمرارة.

- يبدو أن المصرف مهم جداً بالنسبة إليك.

صحح لها خافيير بشراسة: «إنه حقي بالولادة، وهو الشيء الوحيد المهم بالنسبة إلي».

قالت غرايس بعد تردد: «فهمت. لكن مما سمعت، أنت لا تفتقر إلى النساء في حياتك. لماذا إذاً لا تطلب من إحداهن الزواج بك؟»

أقر خافيير بنبرة فظة جعلت غرايس تجفل: «سيكون الأمر أشبه بالجحيم حين يأتي وقت الدفع للتخلص منهن. هذا الزواج هو بمثابة عرض عمل لا أكثر، لكن ذكر كلمة «زواج» أمام غالبية النساء، يجعلهن يقفزن إلى التصور المضحك السخيف للحب».

قالت غرايس ببطء وهي تحاول استيعاب ما يجري: «أتعني... أنك إذا اخترت إحدى صديقاتك الحميمات، فأنك تخشى... أن تقع في غرامك؟ إن غرورك كبير إلى حد يخطف الأنفاس. ما الذي يجعلك تعتقد بأنك مميز إلى هذا الحد؟»

ردّ خافيير بنبرة جافة: «ثروتي التي تقدّر بعدة ملايين من الجنيهات. تعلمت في سن مبكرة من عمري أن المال هو أكثر ما يثير شهية النساء. أليس هذا هو سبب وجودك أنت هنا؟»

أردف بصوت حريري: «أنت تريدين مني أن أسقط التهم الموجهة إلى لص كافأ ثقتي به بالخيانة، مستغلاً الموقع الذي وهبته له».

أحست غرايس أن وجنتيها تتوردان خجلاً، فقالت بصوت أبح: «ليس الأمر كذلك. قلت لك إن والدي كان في حالة يأس تام، ولم يجد أمامه خياراً آخر».

دفع خافيير كرسيه إلى الوراء ثم دار حول مكتبه متجهاً نحو غرايس، فأحست هذه الأخيرة فجأة أن جاذبيته الحادة تغمرها. تسارعت نبضات قلبها عندما أسند وركه على حافة المكتب وانحنى ليدنو منها، آسراً عينيها بنظراته. وأذهلتها قوة كلماته إذ قال: «جميعنا نملك الخيارات، غرايس. يمكنك أن تختاري منحي سنة من عمرك مقابل إعفائي والدك من الملاحقة القانونية ومن فترة حكم طويلة بالسجن».

فكرت غرايس مذهولة أن عينيه أشبه بعيني النمر، فيما حدقت في عمقهما الكهرماني المتوهج.

همست قائلة: «لا أظنني قادرة على فعل ذلك. الزواج ارتباط مقدس مميز. إنه اتحاد شخصين يقفان أمام الله ويتعهدان بأن يحب كل منهما الآخر طيلة حياتهما. أما ما تقترحه أنت فهو... لا أخلاقي».

تمتم خافيير متهكماً: «وهل اختلاس ثلاثة ملايين جنيه أخلاقي؟ أظن أن من الأفضل أن نضع جانباً التساؤل حول مدى الأخلاقية في هذا الأمر، غرايس. أنت ترغبين بأن يعفى والدك من الحكم بالسجن، وأنا أستطيع مساعدتك في ذلك».

أظهرت الارتعاشة في شفتها السفلى توترها، فيما تصلب فك خافيير وقال مزمجراً بنفاد صبر: «أن تصبحي الدوقة دو هيريرا، أليس خياراً أفضل من قيامك بتنظيف الأرضيات لدي؟»

تمتمت غرايس متجاهلة النظرة الساخرة البادية على وجهه: «لا أحبذ فكرة الكذب».

حسناً! ما هي الخيارات التي تملكها حقاً؟ إن لم توافق على الزواج من

خافيير، لا شك أن والدها سيدخل السجن. يجدر بها أن تفعل هذا. قالت من دون تفكير: «حسناً! أوافق على عرض العمل الذي تقدمه لي. سأصبح زوجتك لمدة سنة، لكن مقابل ذلك أريدك أن تلغي كل الديون المترتبة على والدي، وتسدد المبلغ المتوجب عليه إلى المصرف من حسابك الخاص».

تابعت بصوت خال من الأحاسيس، آملة أن يخفي ذلك حقيقة أن قلبها يدق بقوة في صدرها: «وأريدك أن تسقط كل التهم الموجهة ضد والدي. حين تفعل ذلك، سأصبح أنا عروسك».

تحرك خافيير بسرعة كما لو أنه نمر كبير يطبق على فريسته، فوضع كلتا يديه على المسندين الموجودين على جانبي كرسيها، قال لها بوحشية: «أنت تعطين قيمة كبيرة لنفسك، آنسة بيريسفورد. يبدو أنك نسيت أنني أنا من يضع الشروط هنا. ماذا ستفعلين لو قلت إنني كنت أخدعك، وإنني سأرميك خارجاً من دون أي فلس؟»

آه، يا إلهي! هل سيفعل ذلك؟ أخذت غرايس نفساً مرتعشاً وأجبرت عينيها على ملاقاة نظراته الثاقبة، ثم تكلمت بصوت كذّب توترها الصارخ قائلة: «لن تفعل. فأنت بحاجة إلي بقدر ما أنا بحاجة إليك، وأستطيع أن أؤكد لك تماماً بأنني سوف أبدأ بعدّ الساعات التي تفصلنا عن الطلاق بشوق بالغ منذ اليوم الأول لزواجنا. لا مجال أبداً لأن أغرم بك».

قالت غرايس ذلك وهي تحني ذقنها بحيث أصبح وجهها على بعد إنشات قليلة من وجهه. استطاعت أن تشعر برغبته في أن يُخضعها لإرادته، لكنها ترفض أن يخيفها أو يرعبها. إذا كان يتوجب عليها أن تصمد سنة لتلعب دور زوجته، فهي لا تستطيع أن تسمح له بالسيطرة عليها.

ساد توتر حاد جداً بينهما، وبدا كأن الهواء الموجود بينهما يفرقع بشحنات كهربائية. شعرت غرايس بالحمرارة المنبعثة من جسده تغمرها، فحدقت في عينيه وعلمت أنه يشعر بالرغبة في معانقتها. كتمت شهقة كادت تخرج من فمها حين أخفض خافيير رأسه ببطء. أحست أن جفنيها ثقيلان وأن رموشها تنخفض فوق عينيها. لكنها عادت وفتحت عينيها مجدداً حين

أمسك خافيير بسرعة قبضة مليئة من شعرها الطويل عوضاً عن معانقتها، ما جعلها ترفع رأسها بقوة إلى الأعلى.

لدى رؤية تعابير وجهها المصدومة، التوى فم خافيير مظهراً ابتسامة أطلعتها أنه مدرك لخيبة أملها. قال لها: «أنت لست تلك الزهرة الهشة كما اعتقدتك. أليس كذلك غرايس؟ إن جمالك الرقيق يخفي عقلك المخادع الذي يكاد يتطابق مع عقلي أنا».

وقبل أن تحظى غرايس بوقت لتتفاعل مع ما قاله، اقترب خافيير منها وعانقها عناقاً وحشياً مطالباً بتجاوبها، كما لو أن ذلك حقه.

بعد قليل أفلتها ثم استقام في جلسته، فيما التمعت عيناه الذهبيتان. أضاف بسخرية: «اتفقنا إذاً آنسة بيريسفورد. سوف نتزوج حالما نستطيع ترتيب الأمر. يخالجني شعور بأنها سوف تكون سنة مثيرة للاهتمام».

أحست غرايس كما لو أن يداً باردة ملؤها الجزع والخوف تطبق على قلبها، لكنها أجبرت نفسها على النهوض، فوجهت له نظرة جليدية ثم قالت: «أتوقع أن تكون أسوأ سنة في حياتي».

أجابها بنبرة جافة: «أنا واثق أنك ستجدين ما يعوضك بكونك زوجة لرجل مليونير. فكري بكل التسوق الذي يمكنك أن تنهمكي فيه».

استدار خافيير حول مكتبه، ثم رفع سماعة الهاتف وزمجر سلسلة تعليمات. أدركت غرايس أنه لم يعد يوليها أي اهتمام، وأنه عاد إلى ممارسة عمله بعد أن حل مشكلة إيجاد زوجة له. افترضت أنه سوف يصرفها من هنا حتى يحين موعد الزواج الذي سوف يربطهما سوياً بشكل قانوني. لا بأس، فوالدها سوف يصبح حراً، ويجدر بها أن تتمسك بهذه الفكرة المريحة خلال السنة القادمة. بدأت بالانسحاب نحو الباب شيئاً فشيئاً، إلى أن أوقفها صوت خافيير الجاف المقتضب، حيث قال: «إلى أين تظنين نفسك ذاهبة؟»

غروره وعجرفته جعلاها تغلي من الداخل، لكنها لم تجرؤ على ازعاجه. ابتسمت غرايس بتردد، وقالت: «سوف أجد سيارتي وأقود عائدة إلى غرناطة. هل تريدني أن أنتظر هنا لعدة أيام أم أعود إلى إنكلترا وأنتظر حتى

تتصل بي؟»

أجابها خافيير ببرود: «لا هذا ولا ذاك. أنا مغادر إلى مدريد خلال دقائق، وسوف ترافقينني».

٤. أين المفر؟

بدت مكاتب مصرف هيريرا في مدريد بالغة الضخامة. لكن غرايس بدأت تتململ من الانتظار.

- الآنسة بيريسفورد تود أن تعلم إن كنت تتوقع منها الجلوس في صالة الاستقبال طيلة النهار؟

لم تستطع إيزابيل سانشير، سكرتيرة خافيير، أن تخفي لمحة الاحراج البادية في صوتها حين أوصلت استفهام غرايس إلى رئيسها. تكلم خافيير عبر الهاتف الداخلي الموضوع على مكتبه من دون أن يرفع عينيه عن شاشة الكمبيوتر الموضوع أمامه، فقال: «قولي لها إنها ستظل مكانها بقدر ما أحتاج من وقت لإنهاء هذا التقرير».

أطلق خافيير كلماته اللاذعة مقاوماً رغبته بتذكير غرايس بأنها لو كانت تشعر بالضجر إلى هذا الحد فهي حرّة لتغادر، وسوف يقابلها مع والدها في قاعة المحكمة. إنه يسدي لهذه المرأة خدمة هائلة عبر إعفاء أنغوس بيريسفورد من ديونه، وأقل ما يمكنها فعله هو التعبير عن امتنانها ولو قليلاً! عوضاً عن ذلك أمضت غرايس طيلة الخمسين دقيقة التي استغرقتها الرحلة بالطائرة نحو مدريد بالتذمر، معبرة عن رغبتها بالعودة إلى ديارها. عندها أخذت تنتاب خافيير شكوك جدية حيال رغبته بالزواج منها. فكر بتشاؤم أنها شرسة حقاً حتى لو بدت امرأة جميلة.

نقّح عدة تفاصيل ملائمة للتقرير، ثم عاد إلى الوثيقة الموجودة على شاشة الكمبيوتر، فقرأها من جديد قبل أن ينقل المعلومات المطبوعة على قرص مدمج. لكن حتى وهو يعمل، لم يستطع أن يصرف من ذهنه صورة ملامح

www.elromancia.com

وجه غرايس الرقيقة، وتينك العينين الكبيرتين الممتلئتين بالدموع. أطلق شتيمة بصوت خافت وقفز واقفاً على قدميه فعبر مكتبه نحو النافذة ليحدق إلى الخارج.

بدت مدينة مدريد في الأسفل مختنقة من شدة حرارة الشمس الربيعية. يحب خافيير هذه العاصمة العالمية، ومن المنطقي أن يجعل المكاتب الرئيسية لمصرف هيريرا في قلب أهم مدينة إسبانية، كما يسعد بتمضية وقته في شقته المترفة التي تقع على سطح أحد أجمل المباني في أفخم ضواحي العاصمة. لكن قلبه يقبع في الأندلس، وقصر الأسد هو مرجعه وديارة.

أمضى خافيير السنوات العشر الأولى من عمره في عربة قذرة تستخدم كمسكن، لذلك أذهله حجم هذا القصر المهيب وفخامته في بداية الأمر. تشكل هذه القلعة مثالاً رائعاً للفن المعماري المراكشي. لكن حين كان فتياً اهتم باستكشاف الغرف الكبيرة الفسيحة للقصر وأراضيه الواسعة الامتداد، أكثر من اهتمامه بالتعرّف إلى تاريخه. ما زال يذكر حتى الآن ذلك الشعور الجميل الذي أحس به حين شعر أخيراً بانتمائه إلى مكان ما، بعد أن أخبره كارلوس بأن القصر هو منزله وميراثه. علم عندئذ أنه لن يضطر بعد اليوم إلى التنقل من مكان إلى آخر إلى ما لا نهاية، ولن يضطر إلى البحث عن الطعام بين النفايات كما تفعل الكلاب الشاردة، أو إلى تمضية ساعات وهو رابض على درج العربة فيما تقوم والدته بالترفيه عن عشاقها. أما والده فكان يختفي لأيام وأيام بحثاً عن ورطته التالية.

تصلّب فك خافيير حين تذكر قول غرايس له إن ثروته تحميه وتقيه كالدرع من العالم الحقيقي. ما الذي تعرفه هي عن طفولته البائسة المروعة، حين كان يعيش في أماكن حقيرة لا يمكنها أن تتصورها؟ لقد واجه مواقف حيث كان الأقوى هو الغالب، فكان يحكم بقوة قبضته. عرف خافيير خلال السنوات العشر الأولى من حياته معنى الفقر والجوع، كما عرف الاحساس بالخوف والوحدة اللذين ما يزالان يلطخان أحلامه، حتى بعد مرور خمس وعشرين سنة. النعمة الوحيدة التي حظي بها هي تمتعه بغريزة عنيدة للصمود والحياة،

بالإضافة إلى تصميمه وعزمه على النجاح بالرغم من كل العقبات. هذه هي الصفات والميزات التي كونت الرجل الذي أصبح عليه اليوم. إنه ليس بحاجة إلى آنسة بريطانية مدللة مبذرة، تجعله يشعر بالسوء حيال نفسه. من ناحية أخرى، ها هي غرايس جالسة في مكتب سكرتيرته منذ ساعتين، وذلك بعد أن أخرجها من القصر، ثم سمح لها بدقائق قليلة فقط لتجمع مقتنياتها من الفندق في غرناطة، قبل أن ينقلها بسرعة إلى الطائرة النفاثة الخاصة به. أقر خافيير بصدق أن الصبر ليس إحدى ميزاته. عبر نحو مكتبه، وبعد أن أطلق شتيمة أخرى تحدث عبر الهاتف الداخلي قائلاً: «إيزابيل، اطلبي من الآنسة بيريسفورد الدخول، أرجوك».

بقي خافيير جالساً خلف مكتبه عندما دخلت غرايس إلى الغرفة. نظر إليها بشكل عابر حين مشت نحوه مترددة. بادرها قائلاً بنبرة لاذعة: «ما الخطب؟ أخبرتك أنه يجدر بي حضور اجتماع مهم، ثم تدوين التقرير وحفظه في ملف. هل أنت دوماً نافدة الصبر إلى هذا الحد؟»

أحست غرايس بالرعب لبضع ثوان، ثم أقرت لنفسها بصمت أنه رجل مغرور جداً. راح قلبها يتمايل في صدرها وتناست انزعاجها لأنه هجرها في المكتب الخارجي كما لو أنها طرد ما؛ هذا الرجل يمسك بين يديه مصير والدها، وجل ما تستطيع فعله هو التحديق فيه كما لو أنها مراهقة واقعة تحت تأثير أول انجذاب تشعر به تجاه رجل.

حالما وصل خافيير برفقة غرايس إلى المكتب الرئيسي للمصرف، توجه مباشرة إلى مقره الخاص، ولا بد أنه أخذ حماماً وبدل ملابسه قبل بدء اجتماعه. طمأنت غرايس نفسها بأن سبب إحساسها هو رؤية مظهره في البذلة الرسمية. منحه لباسه الرسمي روحاً من التميز والتألق. لكن غرايس استشعرت أن خافيير هيريرا يمتلك أثراً جامحاً في شخصيته، وهو يقبع تحت هذه القشرة الظاهرية المتحضرة، ففي الواقع هو رجل بالكاد يعطي أي اعتبار للقوانين.

غمغمت ساخطة: «أأنا قليلة الصبر؟ أنت من أصرّ على جرجرتي إلى

مدريد من دون أن تمنحني أية فرصة لأوضب أمتعتي بشكل لائق. أنا حتى لا أعرف لماذا أنا موجودة هنا، إلّا إذا كان الهدف ببساطة أن أجلس في مكتبك لأبدو كأحد الأشياء المخصصة للديكور».

اندفع الغضب داخل خافيير لفترة وجيزة، تبعته على الفور لمحة استمتاع جاهد بقوة كي يخفيها. غرايس قد تبدو كفأرة صغيرة وديعة، لكنها تتمتع بدهاء حاد، وهي لا تخشى الوقوف للدفاع عن نفسها. أجابها قائلاً: «في الواقع، إن سبب إحضاري لك إلى هنا بسيط جداً. الليلة سوف نحضر مأدبة عشاء على مستوى رفيع، تقام على شرف أبرز رجال الأعمال والنخبة الاجتماعية في مدريد».

مرّر نظرته بسرعة فوق جسدها، ثم استقرت عيناه على وجهها المحمرّ خجلاً، فيما تابع يقول: «لكننا أولاً بحاجة لأن نذهب للتسوق».

بعد مرور عدة ساعات، لم يبدُ أي أثر للاستمتاع في صوت خافيير وهو يكلم غرايس قائلاً: «اسرعي واخرجي من السيارة، وتوقفي عن التجهم والعبوس».

أدارت غرايس رأسها فوجهت له نظرة ملؤها الغضب، ثم أجابته بنبرة لاذعة حانقة: «أنا لست متجهمة. أنا كنت ببساطة... أستجمع أفكاري».

قررت أن تحتفظ بهذه الأفكار لنفسها بعد أن ألقت نظرة أخرى إلى عيني خافيير الكهرمانيتين اللتين تحملان غضبه المكبوح. لم يمض على اتفاقهما على الزواج أربع وعشرين ساعة، وها هي قد بدأت تشعر بأنها فقدت السيطرة على حياتها. قالت له: «ربما أنت تستمتع بالاندفاع العاصف في حياتك كما لو كنت إعصاراً هائجاً، لكن لا يمكنك أن تتوقع مني مجاراتك في ذلك».

صرَّ خافيير بأسنانه، وقد شُدّ حاجباه إلى بعضهما في عبوس، فيما حدّق في تعابير وجهها المتمردة قائلاً: «أتوقع منك أن تخرجي من السيارة وتدخلي إلى المصعد خلال الثواني الخمس المقبلة، إلا إذا أردتني أن أرميك فوق كتفي وأحملك بنفسي».

- يمكنك أن تبقي يديك اللعينتين بعيدتين عني!

أحست غرايس بالغضب الصاخب يغلي في عروقها، وذلك بحد ذاته دليل على مدى قوة تأثير هذا الموقف عليها. إنها معروفة بطبيعتها الرقيقة وطباعها الهادئة، لكن يبدو أن خافيير هيريرا يستفز أسوأ ما فيها من صفات. دفعت باب السيارة ففتحته بقوة، ثم مشت مرفوعة الرأس عبر مرآب السيارات الموجود في الطابق السفلي نحو المصعد، فيما غمغمت لعنة ما متذمرة بصوت منخفض.

أعلمها خافيير أن المأدبة التي ستقام الليلة في أحد أفخم فنادق مدريد هي مناسبة مثالية لإعلان خطوبتهما. لأول مرة سيرحب بالاهتمام الذي توجهه إليه وسائل الاعلام، وهو سوف يعطيها تفاصيل عن زواجهما الوشيك الذي سيتم خلال مهلة ثلاثة أسابيع.

أحست غرايس برغبة في الصراخ لدى تصورها فكرة الزواج بهذه السرعة، كما شعرت أن قلبها يطوف بألم داخل صدرها. لكن خافيير تجاهل قلقها ومخاوفها بأسلوبه المستبد المتحكم المعتاد. إنه ببساطة رجل اعتاد الحصول على ما يريده وعلى طريقته الخاصة. إنه عازم تماماً على السيطرة على مصرف هيريرا عبر الزواج بها. قاما بعد ظهر ذلك اليوم في جولة شبيهة بالاعصار على أفخم متاجر الملابس في المدينة. حيث اختار لها خافيير شخصياً مجموعة من البذلات وفساتين السهرة الخاصة بمصممين مشهورين، ارتأى أنها الملابس المناسبة للدوقة دو هيريرا. تجاهل رفض غرايس المبدئي لقبول أي شيء منه، كما أشار بوقاحة إلى أن بضعة آلاف من الجنيهات لشراء الملابس هي أشبه بنقطة الماء في المحيط إذا ما قورنت بالمليون جنيه الذي دفعه للتو من أجل الحصول عليها. هذه الجملة الأخيرة جعلت غرايس غير قادرة على النطق.

لحق خافيير بغرايس إلى المصعد، وهو يحمل عدداً كبيراً من الأكياس والعلب.

- لا أصدق أنك ابتعت لي هذا الكم من الملابس. أخبرتك أنني لست بحاجة إليها، فلدي ملابسي الخاصة.

ضغط خافيير على أحد مفاتيح لوحة التحكم بالمصعد حتى يعلو بهما إلى الطابق الأعلى في المبنى ثم تشدّق قائلاً: «دعينا نوضح شيئاً واحداً حبيبتي. خلال السنة القادمة سوف تكونين زوجتي وأنتظر منك أن تتصرفي كدوقة وتلبسي ما يليق بالدوقة. أتفهمين؟ أما عندما تكونين بمفردك فأنت حرة التصرف. يمكنك أن تهرولي عارية، قلّما آبه لذلك».

استقرت عيناه على وجهها الغاضب بشدة، فوجه لها ابتسامة مفاجئة، تركت تأثيراً غريباً داخل أحشائها، ثم تمتم بصوت حريري: «من يدري؟ قد يزيد ذلك علاقتنا تشويقاً».

تجاهلت غرايس تسارع نبضات قلبها، فقالت بذبول: «في أحلامك! ما الخطب بمظهري؟»

لاحظت انعكاس صورتها في المرايا المعلقة على جدران المصعد، فكشّرت. أقرت لنفسها أن فستانها جميل ولطيف لكنه بالكاد يعتبر أنيقاً. إنها لسوء الحظ تفتقر إلى الذوق الرفيع في الأناقة مقارنة بسكرتيرة خافيير المتميزة وموظفات المتاجر الفخمة ذوات الملابس العصرية الطراز. شعرت كما لو أنها واقفة في قعر واد شديد الانحدار، حيث يجدر بها تعلّم الصعود. انفتحت أبواب المصعد، فتبعت خافيير إلى داخل شقته.

يوحي هذا المبنى السكني من الخارج بأنه بناء تاريخي قديم يتكامل مع الفن المعماري الخاص بفندق «بالاسيو رويال» المجاور. لكن زينته وتصميمه الداخليين عصريان. بدت غرف الشقة مضاءة ومشرقة، ذات أرضية خشبية باهتة اللون، وقد سمحت النوافذ الضخمة بدخول أشعة الشمس إليها. تمعنت غرايس في الجدران والمفروشات ذات الألوان المحايدة، فقررت أنها تبدو إلى حدٍّ بعيد شقة خاصة برجل عازب. مناضد المطبخ المصنوعة من الغرانيت وتجهيزاته المصنوعة من الفولاذ غير القابل للصدأ بدت جميعها ملخصاً لعمل مصمم مشهور بالغ الأناقة. هذه الشقة شبيهة بمالكها، فهي مصممة بإتقان ودهاء لكنها خالية من الروح.

تمنت لوهلة لو أنها في ديارها في منزل ليتل كوت، حيث الكراسي المريحة

المغطاة بأغطية قطنية ذات رسومات خفيفة اختارتها والدتها في الأيام الخوالي قبل أن يدمرها المرض. أما والد غرايس فرفض أن يبدّل غطاء المفروشات بأي شيء آخر عصري. لكن منزل ليتل كوت سيباع، لذلك لم يعد لديها أي مكان آخر في إنكلترا تدعوه منزلها باستثناء المنزل المخصص للضيوف الموجود في منطقة إيست بورن، والذي اشترته العمة بام بعد أن باعت المقهى الذي كانت تملكه في إسبانيا. إنه المكان الذي سوف يقيم فيه والدها إلى أن يصبح قادراً على النهوض.

- ما الخطب الآن؟ تبدين كما لو أنك رأيت شبحاً.

تطفل صوت خافيير الخشن مقتحماً أفكارغرايس، فرمشت عينيها بسرعة حتى تردع دموعها.

ردّت بصوت ثخين: «كنت أفكر بوالدي، وآمل أن يكون على ما يرام. متى تنوي أن تسقط التهم الموجهة ضدّه؟ آمل أن تفعل ذلك في وقت قريب».

- فريقي الخاص من المحامين بدأ للتو العمل على الموضوع.

-حسناً! يجدر بهم أن يقوموا بعملهم بسرعة، لأنني لن أضع خاتم الزواج في إصبعي قبل أن يصبح والدي بعيداً عن خطر الملاحقة القانونية.

زجر خافيير قائلاً: «يا إلهي! ألا تجيدين التكلم باحترام؟».

لا أحد يجرؤ على التحدث إلى خافيير بهذا الأسلوب. إنه معتاد على إصدار الأوامر لا على تلقيها. كيف تجرؤ هذه المرأة الصغيرة التافهة، ابنة اللص، على فرض الشروط عليه؟ أحس برغبة في أن يقول لها إن اتفاقهما ملغى، وإنه سيجد لنفسه زوجة في مكان آخر. أي امرأة ستكون أفضل من هذه الشيطانة بالرغم من أنها تتمتع بوجه ملاك. لن يجد مشكلة في إيجاد امرأة غيرها توافق على الزواج به. فكر خافيير بذلك مستهزئاً ساخراً.

ردّت غرايس تحذّره بأنه لا يتطابق مع مقاييسها: «أنا أتكلم باحترام مع من يستحق ذلك».

أحس خافيير أن الغضب العارم يهدد بالسيطرة عليه. لقد تعلّم عبر السنين أن يسيطر على أعصابه ومزاجه الغاضب، لكن غرايس بيريسفورد

تظهر أسوأ ما فيه من صفات، لذلك زجر في وجهها. هذه المرأة لا يتجاوز طولها الخمس أقدام لكنها مليئة بالعناد والتصميم. مع ذلك استطاع أن يستشعر تحت شجاعتها هذه، أنها تخفي الحذر والخوف الحقيقي منه.

أتراها تعتقد بأنه سوف يؤذيها؟ لم تبدُ هذه فكرة ممتعة على الإطلاق. حتى لو أزعجته غرايس إلى أقصى حد ممكن، فهو لن يسبب لها أي أذى جسدي. تساءل لماذا انقبضت أحشاؤه لدى رؤية وميض الدموع في عينيها الزرقاوين الغامقتين. ذكّرها خافيير بعبوس: «قضية أنغوس سوف تسقط ما إن يصبح ذلك ممكناً من الناحية القانونية، وذلك سيحصل قبل موعد زفافنا».

- شكراً لك.

أدار خافيير رأسه لدى سماع النبرة الخافتة في هذا التصريح البسيط، فلاحظ لمحة على وجهها تدل على حساسيتها وقابليتها للانجراح والأذى. فجأة بدت له غرايس هشة إلى حدٍّ مؤلم. فكر أن هذا وهم حتماً، لكن ما إن رأى ارتخاء كتفيها، وكيفية تمريرها ليدها فوق وجهها، حتى أحس بقلبه يكاد ينخلع من مكانه.

أقر خافيير لنفسه بأسى أن غرايس امرأة مميزة حقاً، فهي لا تشبه أية امرأة قابلها من قبل. إن زواجهما يعد بالشرارات والألعاب النارية، وهو لا يستطيع أن ينكر إحساسه بالشغف لدى تفكيره بمشاركة السرير مع زوجته الإنكليزية الصغيرة الشرسة. غرايس بيريسفورد بقامتها النحيلة الجميلة التكوين، وبشعرها الحريري البني الكثيف سوف تؤمن له لهواً مختلفاً عن أولئك الشقراوات الأنيقات المتميزات اللواتي كن يشاركنه سريره.

فجأة قال لها: «سوف أدلك على غرفتك».

لاحظ أن ملامح الارتياح سيطرت على وجه غرايس. أتراها خشيت أن يفكر بتجربة البضاعة قبل شرائها؟ ليكن صريحاً مع ذاته. نعم، مرّت الفكرة بباله. يبدو أنه ما زال في حالة اضطراب منذ أن سقطت غرايس عن سور

القصر بين ذراعيه، فأحسَّ برغبة وتوق لاستكشاف هذا الانجذاب المكبوت الذي يجري بينهما. اعترف خافيير لنفسه بأنه قد يستمتع بملامستها وعناقها، لكنه أقر بأن الوقت ليس مناسباً الآن. إن المأدبة التي ينوي إعلان خطوبتهما خلالها سوف يحين موعدها بعد أقل من ساعتين. ذكر نفسه بابتسامة ساخرة بقاعدته الذهبية: الأعمال تأتي قبل المتعة. أزعجه التفكير بأنغوس بيريسفورد الذي لن يعاني من أي نوع من العقاب على خيانته للثقة الموضوعة به، لكن بدا له أن المليون جنيه هي سعر منصف يدفعه ثمناً لزوجة. بعد ثلاثة أسابيع من الآن سوف يضع خاتمه في إصبع غرايس، والأهم من ذلك هو أنه سيطالب بمنصبه كرئيس لمصرف هيريرا. سوف يحظى بالوقت حينها للانغماس في هذا الشغف غير المتوقع، تجاه هذه الفتاة الشاحبة الوجه.

تبعت غرايس خافيير على طول الرواق نحو غرفة نوم فسيحة أنيقة. قال مشيراً إلى باب يقع في الجانب البعيد من الغرفة: «الحمام هناك. أقترح عليك أن تستخدميه لتستعدي من أجل هذه الليلة. المناسبة تتطلب لباساً رسمياً، وفي المستقبل سوف تحتاج إلى ملابس خاصة بالسهرة يخيطها مصمم معروف خصيصاً لك».

انزلقت عينا خافيير الكهرمانيتان برشاقة وسرعة فوق جسد غرايس. تابع كلامه بتعجرف: «حتى ذلك الحين، سوف تضطرين إلى ارتداء أحد الفساتين التي اشتريناها اليوم. ربما ذاك الفستان الحريري الأزرق».

ردت غرايس بنبرة لاذعة وقد أغضبها أسلوبه المتعجرف في الكلام: «أنا لست فتاة قروية جاهلة. أعرف ما الذي يجدر بي أن أرتديه».

ابتسامة خافيير الباردة لم تنفع أبداً في تهدئتها، فقال لها: «جيد. إذاً سأراك بعد ساعة».

- لا.

ضاقت عينا خافيير على وجه غرايس، لكنه لم يقل أي شيء آخر. بعد أن أومأ لها بإيجاز، خرج من الغرفة وأغلق الباب وراءه. عندها فقط أطلقت غرايس نفسها فيما ارتخت رجلاها، فجلست على السرير. ما الذي فعلته؟

لوهلة أحست بهول ما فعلته؛ لقد وافقت على أن تصبح زوجة خافيير هيريرا الذي ابتاعها بالمال! دفنت وجهها بين يديها، وانتابها إحساس وكأنها قفزت من الطائرة من دون أن تحمل مظلة نجاة، وهي الآن تسقط في الفضاء. كيف تراها ستقدر على العيش معه لمدة سنة؟ فكرت غرايس بذلك بيأس وقنوط. إن خافيير يثير اهتمامها ويرعبها في آن معاً. وقد تطلب الأمر منها كل ذرة من قوة إرادتها كي لا تكشف أياً من هذين الشعورين خلال وجوده معها. أملت أنه سوف يلين، لكن هذا الأمل الضئيل عاد وتلاشى حين تذكرت العناد والحقد البادِيين على ملامح وجهه القاسية الخالية من أية لمحة رقة أولين. كل ما يقوم به خافيير له دافع خفي، وذلك هو سبب زواجه منها. كان بحاجة إلى زوجة، فاشترى لنفسه واحدة الآن. لكن زواجهما ببساطة سوف يكون عقداً قانونياً، ولا داعي لأن يضطرا إلى تمضية الوقت بالفعل سوياً. لعلها تستطيع أن تعود إلى إنكلترا فتساعد العمة بام على الاعتناء بوالدها. فكرت غرايس بذلك وقد أحست بخفقان خفيف ينم عن التفاؤل. خافيير أوضح لها بأن السبب الوحيد الذي يدفعه الاهتمام بها هو كونها البطاقة التي ستوصله إلى استلام منصب مدير مصرف هيريرا.

لكن ما إن خطت تحت مرشة الحمام حتى تذكرت كيف تفحصت عينا خافيير الذهبيتان جسدها بدهاء وأحست بالإهانة فعلاً. لا يحق لخافيير أن ينظر إليها بهذا الأسلوب. زواجهما بعد ثلاثة أسابيع سوف يمنحه الحق بـ... ماذا، بالتحديد؟ المطالبة بأن تشاركه سريره؟

يا إلهي! إنه لن يفعل، أم بلى؟ لأنها بالطبع سوف ترفض، لا مجال لذلك. ربما تحصل معركة إثر ذلك، أو ربما حرب بكل ما للكلمة من معنى. تساءلت غرايس بخوف كيف ستتمكن بعد ذلك من الخروج سالمة. لكنها واثقة من أمر واحد وهو أنها لن تسلّم نفسها إلى رجل لا تحبه ولا يبادلها الحب بدوره.

ريتشارد الوسيم البالغ الثقة بنفسه سلبها عقلها حين قابلها بعد وصولها إلى لندن بفترة قصيرة، لكي تستلم وظيفتها في دار للمزاد العلني. حتى ذلك

الحين كانت غرايس قد حظيت بعدد قليل من الأصدقاء الحميمين. فالاعتناء بوالدتها ومحاولة تقديم الدعم العاطفي لوالدها، استغرقا كل طاقاتها، ولم يبقَ لها سوى القليل من الوقت لإقامة العلاقات الرومنسية. أقرت غرايس بتجهم أنها تعرفت إلى ريتشارد بعد مرور فترة قصيرة فقط على وفاة والدتها، وكانت يومها حساسة جداً وقابلة للجرح والأذى. وحده الله يعلم ما الذي رآه ريتشارد في هذه الفتاة الخجولة التي تعيش وحدها في لندن للمرة الأولى، لعلها براءتها البادية بوضوح. فكرت غرايس بذلك فيما سارت نحو النافذة لتحدق في منظر فندق بالاسيو والحدائق المحيطة به. لم يحاول ريتشارد أن يضغط عليها لتشاركه سريره، بل راح يطمئنها بأنه مستعد للانتظار إلى أن تصبح زوجته.

غمرها حبها لريتشارد بالكامل، فتصورت أن زواجها سوف يدوم لفترة طويلة ملؤها السعادة، تماماً كما كان زواج والديها.

ما زالت غرايس حتى الآن تجهل لما أزعج ريتشارد نفسه بلعب دور الخطيب المحب المغرم. لم تكن لديها أدنى فكرة عما إذا كان ينوي الاستمرار في هذه المهزلة فيتزوج منها فعلاً، لو أنها لم تقبض عليه في السرير برفقة مدبرة منزله البولندية الأصل. منظر ريتشارد مع تلك الشقراء الجميلة فطر قلب غرايس وجرح مشاعرها. لم توافق غرايس على منح علاقتهما فرصة أخرى بالرغم من التوسل والتضرع الذين أظهرهما ريتشارد، بحجة أن ستاسيا ليست سوى خادمة لا تعني له أي شيء. برأيها، الإخلاص هو عنصر أساسي مهم لأجل إقامة زواج ناجح. عادت غرايس إلى ديارها في برايتون محطمة الفؤاد جريحة، وهي تشعر بالغباء التام. على الرغم من اهتزاز ثقتها إلى حدّ كبير، ما تزال تؤمن أن هنالك شريكاً ملائماً لروحها في مكان ما في الدنيا. وبالرغم من أن هذا الاعتقاد قد يكون قديم الطراز، فهي مصممة على الانتظار إلى أن تجد هذا الشخص.

آه! لقد غفلت عن الوقت. جرجرت غرايس ذهنها من الماضي، فعادت إلى الحاضر لتكتشف أن نصف ساعة قد مضت حتى الآن، وما زال عليها أن

تجفف شعرها وتبدل ملابسها. لكنها لم تستمتع مطلقاً برحلة التسوق التي قاما بها بعد ظهر اليوم، لاسيما أن خافيير هو من سدد الفواتير. فكرت بكآبة أنها لا ترغب بأن تدين له بالشكر من أية ناحية، فيما وضعت الفستان الحريري الأزرق الذي اقترح عليها بأن ترتديه على السرير.

أخرجت غرايس من كيس آخر الغرض الوحيد الذي ابتاعته هي، وهو فستان أسود بسيط يصل طوله إلى الأرض، ذو قبة عالية وكمّين طويلين. ما إن أمسكته غرايس لتجربه حتى قام خافيير برفضه فوراً قائلاً إنه غير ملائم. أما هي فاعتقدت أنه أنيق وعملي، والأهم من ذلك كله، أنها دفعت ثمنه بنفسها من أموالها الخاصة من دون علمه.

بدا كأن اللون الأسود يستنزف اللون من وجهها. قررت غرايس ذلك بعد أن رفعت شعرها فربطته في عقدة، ثم تراجعت إلى الوراء حتى تتفحص انعكاس صورتها في المرآة. آه! حتى مع لمسة أحمر الشفاه اللماع الزهري اللون، ما زالت تشبه مربية للأولاد في زيها الرسمي، لا عروساً متوردة الخدين. لكن الوقت تأخر الآن كي تقوم بتبديل ملابسها. فضلاً عن ذلك، إنها ترفض السماح لخافيير بأن يملي عليها ما يجدر بها أن تلبسه.

كان خافيير ينتظر في الصالة عندما اندفعت غرايس عبر الرواق، رافضة أن تقر بأن قلبها يتخبط بألم في صدرها. ما إن دنت من الباب تمهلت وحدقت بخافيير. فكرت بوهن أنه يبدو مميزاً حقاً، فيما أحست أن شجاعتها تتلاشى. بذلته الرسمية السوداء المخصصة للسهرات أبرزت طوله وكتفيه العريضتين، لكن ما إن استدار نحو غرايس، حتى حذرتها النار المتأججة في عينيه الذهبيتين.

- ما هذا الذي ترتدينه بحق الجحيم؟ يا إلهي! تبدين كما لو أنك على وشك حضور مأتم عوضاً عن الاحتفال بخطوبتنا.

ردت غرايس وقد لسعها ازدراؤه الهازئ: «لعل السبب هو أنني أعتبر خطوبتنا أمر غير مهم ولا داعي للاحتفال بها. أما اللون الأسود فهو ملائم تماماً لمزاجي الآن».

زمجر خافيير فيما عبر الغرفة بخطى واسعة، فقبض على كتفيها قائلاً: «أمامك دقيقتان فقط لتبدلي ملابسك من ثياب الحداد الخاصة بالأرامل وترتدي الفستان الأزرق».

- أو...؟

تحدّته غرايس وقد اشتعلت وجنتاها فيما استقرت يداها على وركيها في وضعية محاربة. لم تشعر بغضب مماثل طيلة حياتها. اختفت غرايس بيريسفورد اللينة الطباع، وحل محلها بركان ثائر يفور بالهيجان والغضب العارم. إن هيريرا رجل متعجرف بشكل لا يطاق، كما أنه فظ وقح، وهي سوف ترتدي ما تحبه. اللعنة! كيف يجرؤ على وضع القانون الخاص بما ترتديه من ثياب؟

التوى فم خافيير في ابتسامة خالية من الدفء تماماً، إذ قال: «أو سوف أجردك من ملابسك في رمشة عين و... أقر أنه قد يستغرقني وقت أطول حتى ألبسك مجدداً».

تمتم خافيير بذلك ببرود متابعاً: «قد ينتج عن ذلك تأخرنا على مأدبة العشاء، لكن مضيفينا سوف يتفهمون حتماً خطيبين شغوفين ببعضهما. أما لطخة الدفء التي ستظهر على خديك فسوف تمنحك مظهراً متألقاً عوضاً عن مظهر شبح شاحب اللون».

- أنت نذل حقير، وأنا لن أستمر بهذا الأمر.

أحست غرايس بدموع الغضب تلسع عينيها، فرمشت بحدة مصممة على منعها من التساقط. قالت: «أنا لا أقدر على تحملك لمدة خمس دقائق، فكيف أتزوجك لمدة سنة كاملة؟»

هز خافيير كتفيه بلا مبالاة، ثم أخرج هاتفه النقال من جيب سترته قائلاً: «حسناً! سوف نلغي الأمر برمته».

توقف عن الكلام لجزء من الثانية، ثم أضاف برقة: «ظننتك تهتمين لأمر والدك، لكن من الواضح أنني كنت مخطئاً. الشخص الوحيد الذي تهتمين له هو نفسك، أليس هذا صحيحاً غرايس؟»

همست غرايس بصوت مخنون: «أنت تعلم أنني أفعل أي شيء لأجله».

إن خافيير يمتلك القدرة على التحكم بالأمور، وكلاهما يدرك ذلك. إذا رفضت غرايس الزواج منه، فهو سوف يجد عروساً غيرها بمنتهى السهولة. ثروته التي تقدر بعدة ملايين من الجنيهات تضمن له ذلك، أما هي فليس أمامها أي خيار آخر لإنقاذ والدها من السجن. إنها عالقة، ولا مفر أمامها.

- دقيقتان، غرايس!

حذرها خافيير بهذه الكلمات، فيما ناولها الفستان الأزرق. تمتمت غرايس لعنة ما واستدارت بسرعة حول نفسها، ثم مشت نحو الحمام.

إذا أرادت أن تكون صادقة مع نفسها، فالفستان جميل فعلاً ولونه يتلاءم مع لون بشرتها الرقيقة. إنه فستان ذو ربائط رفيعة على الكتفين مرصعة بحبات ماسية، وذو فتحة عنق منخفضة أكثر من أي رداء ارتدته يوماً. هو أنيق وجذاب في آن معاً. بدا كأن الحرير المنسدل على جسدها يداعب بشرتها، كاللمسة الرقيقة لعاشق مجنون...

حدقت غرايس في انعكاس صورتها في مرآة الحمام. بحق السماء! عليها أن تتمسك برصانتها فيما يخص خافيير، فلا تنجرف إلى عالم خيالي ملؤه الشغف كذلك الذي رأته منعكساً في عينيه الكهرمانيتين. ذكرت غرايس نفسها بانزعاج أنها غير معجبة بالرجل أصلاً. إنها في الواقع تمقته. إنه ضخم جداً، قوي جداً، كل ما فيه كثير جداً عليها.

استنشقت نفساً عميقاً، ثم فتحت الباب نحو غرفة النوم وقالت ببرود: «أراضٍ أنت؟»

لم تقدر على كبح ارتعاشة خجل خفيفة حين انزلقت عينا خافيير بوقاحة فوق جسدها.

- ليس تماماً. تعالي إلى هنا.

أحست غرايس كما لو أنها كلب يُستدعى ليجثم عند قدميه، لكن الوميض البادي في نظرته الذهبية حذرها بأن تتمالك نفسها وتردع لسانها. قومت كتفيها وعبرت غرفة النوم لتقف أمامه. شهقت حين أدارها حول

نفسها بحيث أصبح ظهرها في مواجهته، ورأت انعكاس صورتها في المرآة. بعدئذٍ قام خافيير بحركات رشيقة لإزالة المشابك من شعرها المعقود بترتيب وحذر. وعندما انسدل نزولاً على ظهرها التقط فرشاة شعرها وبدأ يمشط الخصلات الحريرية بضربات خفيفة.

بدا ذلك أمراً حميمياً إلى حد بعيد، فأخذت الحماوة تجوب عروق غرايس، ما جعلها تتحرك مبتعدة عنه.

- لا تتحركي!

بدا الوميض في عينيه ساخراً نوعاً ما، كما لو أنه مدرك لجهودها الجبارة لكبح كلماتها الغاضبة وإبقائها تحت السيطرة. بالرغم من ذلك، فإن انزلاق الفرشاة من خلال شعرها بدا مريحاً إلى حد بعيد. وحين وضع خافيير يده الأخرى نحو قفا عنقها، مدلكاً برفق العقدة العضلية بأنامله الطويلة، أحست غرايس أن التوتر يخرج مبتعداً عن جسدها.

- ها أنت...! الآن تفين بالمطلوب.

أعاد الفرشاة إلى طاولة الزينة، ثم مد يده إلى جيبه قائلاً: «باستثناء لمسة أخيرة نهائية».

نقف خافيير العلبة المخملية الموجودة في يده ففتحها. حدّقت غرايس بصمت إلى خاتم من الماس والياقوت الأزرق ذي بريق يخطف الأبصار. سألته بصوت يشبه النعيق: «هل هذا ضروري حقاً؟»

خمنت أن غالبية النساء مستعدات لأن يهبن نفوسهن لأجل الحصول على قطعة من المجوهرات بهذه الروعة، أما هي فأحست بالغثيان. أجاب خافيير بصوت يرشح بالتهكم: «بالطبع، هو ضروري. فحالما أعلن عن خطوبتنا سيتوقع جميع الموجودين رؤية الخاتم».

مد يده بنفاد صبر ليمسك بيدها، فيما وضعت غرايس يديها خلف ظهرها، فقال: «أعطني يدك. اعتبريه ذخيرة للمستقبل. فبعد انتهاء زواجنا، يمكنك أن تبيعيه».

- حينما ينتهي زواجنا سوف أعيده لك مع كل شيء آخر منحته لي.

لعلك اشتريت وجودي في حياتك لمدة سنة خافيير لكنك لن تمتلك روحي أبداً ولن تسرق نزاهتي.

- النزاهة؟

ارتفع حاجبا خافيير نحو السماء، لكنه لم يضف أي شيء آخر فيما وضع الخاتم في إصبعها. فوجئت غرايس حين ناسبها تماماً، فاستقر في إصبعها بثبات، كما لو أنه صنع خصيصاً لها. علقت بتذمر: «إنه جميل جداً. أنا فقط آمل ألّا يضيع مني».

رفعت يدها وتأملت الخاتم بتردد معجبة بكيفية التماع الماسات تحت الأضواء، فيما وقف خافيير يراقبها بصمت ما جعلها تحمر خجلاً. غمغم قائلاً: «لا أظن أنه سيضيع. الياقوت الأزرق يتلاءم مع لون عينيك. لقد خمّنت قياس إصبعك، فطلبت من الصائغ أن يعدّل الخاتم الأساسي ويصغّره عدّة قياسات».

أمسك خافيير يد غرايس بقبضته القوية، وحدّق نزولاً نحو أناملها النحيلة قائلاً: «أنت نحيلة وسريعة العطب كما لو كنت عصفوراً صغيراً حساساً، وأنا أخشى أن أحطمك بيد واحدة».

نبرة صوته المخملية أرسلت ارتعاشة في جسدها، فنزعت يدها بسرعة من قبضته، ثم أكدت له بشراسة وهي ترفع ذقنها لتلاقي نظرته المتوهجة: «أنا أقوى مما أبدو عليه. لذا لن تحطمني أبداً، سنيور».

أحست غرايس بأنفاسها تنقطع لدى رؤيتها ابتسامته المفاجئة، ولم تستطع إبعاد نظراتها عن وجهه الوسيم. قال لها: «إنها كلمات شجاعة، حبيبتي! والآن حان وقت ذهابنا».

مدّ خافيير ذراعه لغرايس، فشبكت يدها بها فيما أحست أن قلبها يغوص في صدرها ما إن أصبحا مترابطين معاً. لقد عقدت اتفاقاً مع الشيطان، والآن لم يعد أمامها خيار آخر سوى المضي حتى النهاية.

٥ - اعتراف وندم

قال خافيير لغرايس: «أوشكنا أن نصل إلى الفندق. أرى أن التلميحات التي أعطيتها للصحافة أعطت تأثيرها المطلوب. يبدو أن صحافي الصفحات الصفراء احتشدوا لملاقاتنا».

ألقى نظرة على غرايس، فانعقد حاجباه السوداوان سوياً في عبوس وهو يتأمل ملامح وجهها المتوترة. قال: «يا إلهي! تبدين كما لو أنك في طريقك إلى حبل المشنقة. ابتسمي يا امرأة! يتوقع الصحفيون منك أن تبدي مغتبطة جداً بما أنك على وشك أن تصبحي الدوقة دو هيريرا».

غمغمت غرايس: «لا يمكنني تمالك نفسي. كيف يمكنني أن أبدو سعيدة خلال أسوأ أمسية في حياتي؟ ما همّ ما يعتقده أي شخص، في جميع الأحوال؟ أوليس معلوماً من الجميع بأنك تتزوج فقط لكي تضمن موقعك على رأس مصرف هيريرا؟»

حدقت مشككة في ملامح خافيير العابسة فيما جاءتها فكرة مفاجئة، فقالت: «من يعلم بخصوص شرط الزواج المدرج في وصية جدك؟»

لوهلة بدا كأن خافيير يرفض الرد. اتسعت فتحتا أنفه غيظاً، فيما راقب غرايس بمقت. بعدئذٍ رد قائلاً: «محامي كارلوس رامون أغويلار فقط، فهو يعرف محتوى الوصية. وأنا أريد أن يبقى الأمر حصراً علينا».

أضاف خافيير كلماته هذه فيما أثار التهديد المضمر في نبرة صوته الارتعاد في جسد غرايس. بدا من الصعب عليها أن تقرأ أفكاره فيما تبدو عيناه مخبتتين خلف أهدابه السوداء الطويلة، لكنها استطاعت أن تلحظ لمحة حرج عليه، بسبب تصلب كتفيه. فاستفسرت: «لماذا أصرَّ جدك على وجوب

زواجك قبل أن تتمكن من استلام رئاسة المصرف؟»

هز خافيير كتفيه وأجاب: «ظن جدي أن صورتي كرجل متزوج أفضل من تلك المعروفة كزير نساء. أقر أنني لم أعش أبداً حياة الراهب المتنسك، حبيبتي».

التمعت عيناه باستمتاع لدى رؤيته منظر وجنتيها المتوردتين، فتابع متشدقاً: «أنا أتمتع... بغرائز سليمة، لكن كارلوس رأى أن حياتي الشخصية قد تترك تأثيراً على أحكامي العملية العقلانية، ما يؤدي بي إلى ارتكاب الأخطاء».

- وهل أثر ذلك في أحكامك العملية؟ هل ارتكبت الأخطاء؟ لا بد أن شيئاً ما حدث فجعل كارلوس هيريرا يضيف البند المتعلق بالزواج إلى وصيته.

تلاشت ابتسامة خافيير، فرمق غرايس بنظرة باردة وقال: «خطأ واحد فقط. عينت رجلاً يدعى أنغوس بيريسفورد لإدارة الفرع البريطاني من المصرف».

طارت يدا غرايس إلى فمها، وقالت: «آه، لا! هل علم جدك...؟»

- ...بأن الرجل الذي وضعت فيه ثقتي هو لص ماكر استغل موقعه حتى يختلس ثروة من الأموال من مصرف هيريرا؟ نعم. علم جدي بالأمر. عمل جدي لسنوات على تشذيبي وتهيئتي لأستلم مكانه في إدارة المصرف، لكنه علم بخيانة والدك وهو على فراش موته، ما أثار لديه الشك بقدراتي في الحكم بشكل جيد على الآخرين.

ابتسم خافيير ابتسامة خالية من السرور واللهو، وتابع قائلاً: «من الواضح أن كارلوس استنتج أنه لو كانت لدي زوجة تلبي رغباتي، سيغدو عقلي خالياً مما يكدّره، فأركز على الأعمال».

أحست أن قلبها يغوص في صدرها، فقالت: «أهذا صحيح؟ أهذا ما تتوقعه من زواجنا، خافيير؟»

أعلمها خافيير بخشونة: «أنا أنظر إلى زواجنا كأمر غير مناسب لي

وكإزعاج لعين. ولا نية لي مطلقاً بأن أسمح لأي شخص سوانا أن يكتشف الأسباب الحقيقية الدافعة لهذا الارتباط. لكن هنالك سخرية ما في الأمر. فالالتزام بمطالب جدي، دفعني إلى الزواج بابنة الرجل الذي أثار شكوك كارلوس بقدراتي».

انزلقت نظراته على جسد غرايس ثم قال لها: «على الرغم من ذلك، أرى بأن هنالك تعويضات محددة من خلال جعلك عروسي، حبيبتي».

أجفلت غرايس فيما انجرف الهلع داخل جسدها، فاندفعت قائلة: «أي نوع من التعويضات؟»

افترضت أن زواجهما سوف يكون اسمياً فقط ولم يطرأ ببالها بأن خافيير يتوقع منها أن تتمم كامل واجباتها كزوجة له. في تلك اللحظة توقفت السيارة فاستنشقت غرايس نفساً حاداً لدى رؤية حشد الصحافيين المنتظرين خارج الفندق. فكرت مرتعبة أنها غير قادرة على المتابعة. حاولت بقوة سحب خاتم الياقوت الذي بدا كأنه ملتصق بإصبعها. يجدر بها أن تنهي الأمر الآن، قبل أن تؤدي بها خطوبتها المزيفة إلى أن تصبح فعلاً الزوجة العذراء لخافيير هيريرا.

- تعويضات مثل هذه...

شيء ما في صوت خافيير جعل غرايس تدير رأسها نحوه. ابتلعت ريقها لدى رؤيتها الشرارات اللامعة البادية في عينيه. كان الأوان قد فات حين أدركت نيته. وقبل أن تتمكن من الابتعاد إلى الوراء، أمسك خافيير بها وأخفض رأسها وعانقها.

فاضت الحرارة من خلال شرايينها، فأحست كأن عظامها تحولت إلى هلام. لم تعد قادرة على منع نفسها من الانحناء نحوه، لتضغط بجسدها على حائط صدره القاسي. استخدم خافيير يديه بمهارة ودقة فأطلقت غرايس أنيناً خافتاً عندما جذبها لتدنو منه أكثر. شعرت بضربات قلبه غير المنتظمة يتردد صداها تزامناً مع ضربات قلبها هي. لفت ذراعيها حول عنقه ثم غرست أناملها في شعره الحريري الأسود. لم تشعر بإحساس مماثل أبداً من قبل،

حتى عندما كان ريتشارد يعانقها، وهو الرجل الذي ظنت أنه حب حياتها.

- أعتقد أن ذلك كافٍ. أريدك أن تبدي مفتونة لا مذعورة كأنك خرجت لتوك من السرير، وبالكاد تنتظرين العودة إليه.

أطفأ هذا التعليق الساخر شغف غرايس، كما لو أن دلواً من المياه الباردة قد سُكب فوق رأسها. تلون خداها باللون القرمزي وانتزعت يديها عن كتفي خافيير، وهي تحاول تجنب نظرته الساخرة. فيما همست مرتعشة: «أيها الوغد!»

- لا أظن أن أحداً سيشك بشغفنا المتبادل. أليس كذلك عزيزتي؟ أنت تبدين مفتونة بخطيبك بشكل ملائم. جل ما عليك فعله الآن هو الإبقاء على هذا المظهر حتى نهاية السهرة.

بدا واضحاً من نبرة خافيير إدراكه التام بأنه لم يكن هنالك أي تظاهر في ما جرى، أقله من ناحيتها هي. فكرت غرايس بذلك فيما أحست بالغثيان. كيف تمكنت من التجاوب معه وهي تعلم كم يمقتها؟

فتح السائق الباب لهما، فقبض خافيير على رسغ غرايس. ثم همس في أذنها قائلاً: «ابتسمي عزيزتي، قبل أن يشعر المصورون بالارتياب، فأضطر إلى معانقتك مجدداً. أريد أن يرى العالم أجمع في صحف الغد أن زواجنا هو ارتباط حب مصنوع في الجنة».

راحت غرايس ترتعش من شدة الاضطراب، فيما ستّرت ابتسامة على وجهها. كادت تصاب بالعمى بسبب وميض أضواء آلات تصوير الصحافيين المجتمعين على الرصيف. قالت من خلال أسنانها: «كلانا نعرف جيداً أن ارتباطنا تم ابتكاره في نيران الجحيم، لذا أشك في أنني أستطيع خداع أي شخص ليعتقد أنني مغرمة بك».

استقرت يد خافيير على خصرها، فبدا لها كأنها تحرقها من خلال الفستان. تشدق وهو يقودها بحزم نحو بهو الفندق: «على العكس. اعتقد أنك بدوت مقنعة جداً، لكن إذا كنت تلحين يمكننا أن نخوض المزيد من التدريبات لاحقاً هذا المساء. الآن، ها هو مضيفنا. تذكري ما تخاطرين به

هنا، غرايس».

حذرها خافيير بصوت حريري ناعم متابعاً: «حرية والدك تعتمد على قيامك بأداء ملائم، تماماً كالنجمة الهوليودية».

* * *

بدت المأدبة مهيبة، وقد أقيمت تكريماً لأعضاء مؤسسات وشركات إسبانيا الفضلى. أحست غرايس بالرهبة لمدى روعة صالة الاحتفالات. تمنت لو أن بإمكانها أن تبدي إعجابها بالأعمال الفنية المدهشة التي تزين الجدران، وبالثريات المميزة المعلقة في السقف. لكنها عوضاً عن ذلك اضطرت إلى معاناة محنة العشاء الرسمي الذي بدا كأنه يستمر إلى الأبد. أما الأسوأ من ذلك، فهو وقوف خافيير لدى انتهاء العشاء ليعلن خطوبتهما. أجبرت غرايس على الوقوف أمام حشد وافر من الوجوه الغريبة حتى تتقبل التهاني، وما لبثت أن شعرت بالرعب عندما غمرها خافيير بين ذراعيه، وعانقها أمام أنظار الضيوف المذهولين.

حين أفلتها خافيير غرقت إلى الأسفل في كرسيها. فهي لم تقوَ على مقاومة عناقه، حتى أثناء شعورها بعيون مئات من الأشخاص الغرباء منصبة عليها.

ما الذي يحدث لها؟ تساءلت غرايس يائسة فيما راقبت خافيير وهو يتحرك برشاقة في حلبة الرقص. اتضح لها أن كل امرأة في الغرفة تتوق لمرافقته. ففي هذه الغرفة المكتظة بالرجال المتميزين، بدا خافيير متفوقاً بأشواط على الآخرين جميعاً. ليس للأمر أية علاقة بثروته أو بمركزه الاجتماعي، بل السبب هو الرجل نفسه. إنه قوي، مسيطر ووسيم إلى حد الدمار، حتى إنه أسر عيني كل امرأة موجودة في القاعة. حتى خلال فترة خطوبتهما، لم يتمكن ريتشارد من استثارة هذا المستوى من الأحاسيس التي يستحضرها فيها خافيير.

- يبدو أن خطيبك هجرك. أهذا السبب تبدين حزينة جداً آنسة بيريسفورد؟

جرجرت غرايس عينيها بالقوة فسحبتهما عن باحة الرقص، لتنظر إلى

المرأة الجالسة قبالتها. الكونتيسة ميرسيدس دي رييس هي زوجة أحد أبرز رجال الأعمال في مدريد وأكثرهم نفوذاً. تمتمت بلباقة: «أنا لست حزينة، سينيورا، أنا فقط... أفكر».

ألقت الكونتيسة نظرة نحو حلبة الرقص، حيث يراقص خافيير امرأة شقراء مذهلة ترتدي فستاناً قرمزي اللون ملتصقاً بجسدها. كانت الموسيقى قد توقفت، لكن أياً منهما لم يكترث لهذا الواقع أو يدركه. قالت المرأة برقة: «أشعر بالفضول لمعرفة ما تفكرين به، عزيزتي».

لم تقوَ غرايس على منع عينيها من الالتفات مجدداً نحو حلبة الرقص، مذكرة نفسها أن لا داعي لهذا الشعور السخيف بجرح الأحاسيس والاستياء. إن خطوبتهما مزيفة، وهي لا تأبه البتة بمن يراقص خافيير. أجابت محيدة بنظرها عن نظرة الكونتيسة: «كنت أبدي إعجابي بمهارة خافيير في الرقص».

- نعم. إن الدوق دو هيريرا بارع في الرقص. أليس كذلك؟ أخبريني عزيزتي...

انحنت الكونتيسة إلى الأمام وقد التمعت عيناها السوداوان مشككتين، ثم قالت: «... كيف تعرفتما إلى بعضكما؟»

اللعنة!

- تعرفنا خلال إحدى رحلات خافيير للعمل في إنكلترا. إنه... صديق لوالدي.

- لكن... هذه هي المناسبة الأولى التي تشاهدان علناً سوياً.

اصطبغت وجنتا غرايس باللون الأحمر، فرطبت شفتيها بتوتر فيما حاولت تذكر القصة التي ابتدعها خافيير حول علاقتهما الرومنسية المزيفة. يجدر به أن يكون هنا، ليساعدها على ردع الكونتيسة.

فكرت غرايس للمرأة آملة أن تبدو مقنعة: «عرفنا بعضنا لعدة أشهر، لكننا في بادئ الأمر قررنا إبقاء علاقتنا بعيدة عن الأضواء. إن الوقوع في الحب أمر شديد الخصوصية. ألا تظنين ذلك؟»

تقوس حاجبا الكونتيسة المرسومان بدقة بدهشة واضحة، وقالت: «حسناً! لم أتوقع ذلك من خافيير. يبدو أنك نجحت حيث فشلت الأخريات آنسة بيريسفورد، فأسرتِ قلب الأسد. هل تحبينه؟»

لاحظت غرايس اللمحة الخفيفة التي تدل على عدم التصديق في صوت الكونتيسة. بدا من الواضح أن المرأة الأكبر سناً لم تقتنع بأن الدوق دي هيريرا قد يختار فأرة خالية من اللون ومملة مثلها هي لتصبح عروسه. تحرك السخط والحنق في صدر غرايس فرفعت ذقنها إلى الأعلى. قالت بحزم: «أنا أحب خافيير من أعماق قلبي. إنه توأم روحي، وبالكاد أطيق صبراً حتى يحين ذاك اليوم الذي أتعهد فيه بقضاء بقية حياتي معه».

- آه، غرايس! إنك تسلبينني أنفاسي، يا حبيبتي.

سمعت غرايس صوتاً مألوفاً، فشهقت واستدارت إلى الوراء لتصطدم نظرتها المجفلة بعينين كهرمانيتين وامضتين. حيث قال خافيير: «أنا أيضاً يكاد صبري ينفد لأجعلك زوجتي».

ذلك اللمعان السري في عينيه ذكرها بسبب نفاد صبره بالتحديد. فهو يريد الحصول على مصرف هيريرا، وما هي إلا مجرد وسيلة لتحقيق هدفه، ومن المحتمل أن تكون كذلك لهواً مسلياً من عشيقاته. فكرت غرايس بعبوس، أنها يجب أن تضع بعض الشروط الأساسية.

- ارقصي معي، حبيبتي.

قبل أن تتمكن غرايس من الاعتراض، كان خافيير قد جذبها بين ذراعيه فسحبها إلى حلبة الرقص، حيث شدّها لتلاصق جسده الصلب. قالت غرايس لنفسها بحزم إن هذا كله جزء من اللعبة، وذلك حين أحست بأن كل خلية من خلاياها العصبية قفزت نابضة بالحياة والنشاط.

همست في أذنه حين تحولت الموسيقى إلى إيقاع هادئ بطيء: «أعتقد أنني تدبرت أمر إقناع الكونتيسة أنني مغرمة بك بجنون».

- أقر بأن مواهبك في التمثيل أثّرت بي، عزيزتي. لولهة كدت تقنعينني بذلك.

توبيخ خافيير الساخر وضحكته المكتومة التي نفخها داخل أذنها، كانا آخر ما يمكنها احتماله.

- من الواضح أنني كذبت بخصوص ذلك. فلا يمكنني أن أتصور أن امرأة في كامل قواها العقلية تعطيك قلبها وتقع بغرامك أنت. فأنت شخص لا يمكن أن يحب مطلقاً.

- كانت والدتي تقول لي ذلك أيضاً.

تلون صوت خافيير بالاستمتاع، لكن حين رفعت غرايس نظرها نحوه، وجدت أن عينيه المحجوبتين تخفيان أفكاره. تعثّرت في خطاها وقد أحست بالارتباك التام، فأحكم خافيير قبضته فوراً حول خصرها.

غمغمت غرايس قائلة: «كل الوالدات تحبين أولادهن. لماذا تراها قالت ذلك؟»

قاومت رغبتها بوضع يدها فوق قلب خافيير الذي راح يخبط بقوة تحت أذنها. هز خافيير كتفيه بلا مبالاة وقال: «ربما لأن ذلك صحيح».

أخفض بصره نحوها فلاحظ الارتباك ولمحة الشفقة الخفيفة البادية في عينيها. بدت غرايس صغيرة جداً، أما هو فبدا كمارد قادر على سحقها بين يديه. لكنه لا يرغب بإيذائها. فاجأه إدراكه أنه يكاد لا يطيق صبراً حتى يصبح بمفرده معها، عوضاً عن البقاء أمام الجموع الموجودة في هذا الحفل اللعين. تاق خافيير لأن يتذوق طعم عناقها مجدداً، فيشعر برقتها ونعومتها.

لأول مرة في حياته، أحس أنه مجبر على تفسير سبب تجرده من الأحاسيس الانسانية. في العادة، هو لا يأبه لرأي أي شخص آخر حياله، لكن شيئاً ما في تعابير وجه غرايس الرقيقة جعله يرغب بكشف بعض من شخصية هذا الرجل القابع خلق القناع. كما رغب بكشف الأسباب التي دفعت خافيير هيريرا إلى إلغاء الحب من حياته.

شرح لها بنبرة جافة: «والدتي تزوجت من والدي فقط لأجل أمواله، وربما بسبب الاعتبار الذي أملت أن تحظى به إذا ما أصبحت الدوقة دو هيريرا. لكن جدي كان لها بالمرصاد، إذ أنذر والدي أنه لو تزوج بوالدتي،

فسوف يفقد كل حق له بالقصر وبالمصرف وبثروة آل هيريرا».

التوت شفته بابتسامة ساخرة وتابع: «ولأنه غبي اختار الزواج بها، فقطع جدي كل علاقة معه».

استفسرت غرايس وهي عاجزة عن إخفاء صدمتها: «أتقصد أن جدك أبعد والدك عن حياته إلى الأبد؟ ألم يقابله مجدداً بعد ذلك؟»

أجابها خافيير بخشونة: «آل هيريرا لا يرجعون بكلامهم. أدرك كارلوس أن عقل فرناندو مشوش بسبب حياة المجون التي عاشها مع والدتي، لذلك حرمه من ميراثه وطرده من قصر الأسد».

ظلت غرايس مدركة في مكان ما من ذهنها لوقع الموسيقى، فتحركت قدماها بصورة آلية مع الإيقاع. لكنها في الواقع كادت تترنح بسبب اعترافات خافيير الغامضة حول عائلته. لا بد أن كارلوس هيريرا كان رجلاً فظاً عديم الرحمة ليتمكن من التخلي عن فلذة كبده، فهل يفاجئها أن حفيده ورث عنه خصاله؟ سألته: «ماذا عنك...؟ افترضت أنك أمضيت طفولتك في القصر».

- أتقصدين أنني وليد ثروة يعجز العقل عن تصورها؟

أجبرتها سخريته على تذكر الاتهامات المريرة التي وجهتها له حين زارته في قصر الأسد. ضاقت عينا خافيير حين احمرت وجنتاها خجلاً، وقال: «أمضيت السنوات الأولى من عمري كطفل غجري همجي متجول، تماماً كالكلاب التي ترافق أعضاء السيرك الذين عملت والدتي معهم».

أطلق خافيير ضحكة مريرة ولم تعد عيناه تتوهجان باللون الذهبي، بل أصبحتا باردتين خاليتين من الأحاسيس، فيما تابع: «حالما أدركت والدتي أن جدي لن يقبل بها مطلقاً، أدارت ظهرها لوالدي وللابن الذي أنجبته. كنت طفلاً مزعجاً غير محبوب، وحين ارتبطت والدتي بعشيق ثري تخلّت عني، فبقيت مع والدي شبه المجنون الذي تدعو حاله إلى الشفقة».

همست غرايس: «وماذا حصل له؟»

- توفي بعد أشهر قليلة على هجر والدتي له، لذا تعلمت في سن مبكرة أن

الحب إحساس فظ ومدمر، وأقسمت أنه لن يحتل أي مكان في حياتي أبداً. علم جدي بوفاة والدي، وحتى ذلك الحين لم تكن لديه أية فكرة عن وجودي، لكنه أحضرني حالاً إلى القصر. عندها اكتشفت ميراثي. لذلك عزيزتي، لن يوقفني أي شيء عن تحصيل حقي بالولادة والوراثة.

رفعت غرايس بصرها نحو خافيير وقد ظهر قلبها من خلال عينيها. فهي خلال طفولتها لم تعرف أي شيء سوى الحب والحنان من قبل والديها. إنها لا تستطيع حتى أن تبدأ باستيعاب طفولة خافيير الموحشة الكئيبة. لا عجب إذاً أنه سحق مشاعره بقسوة، فهو لم يختبر أبداً في حياته الحب العائلي غير المشروط.

للحظة تخيلت غرايس ذاك الولد الذي نما ليصبح رجلاً قاسياً عديم الرحمة. ما شأنها هي على أي حال؟ لماذا تهتم لأجله؟ إن حرية والدها هي الأمر الوحيد الذي يهمها، وسوف تكون غبية لو رقت مشاعرها وحنّ قلبها على «الأسد» الذي يعيش منفرداً في قصره في الجبل.

تمتمت وهي غير قادرة على منع شفتها السفلى من الارتعاش: «إنها قصة مريعة حقاً. لا أدري ماذا أقول».

تركز تحديق خافيير بدقة على غرايس، فيما لف خصلة من شعرها الطويل حول يده، ثم دفع برأسها إلى الأعلى، وقال: «لا أطلب منك أن تقولي أي شيء سوى «أنا أقبل» عندما يحين موعد زفافنا. أما في الأوقات الأخرى المتبقية فأقترح أن تبقي فمك مقفلاً».

أحست غرايس أن كلماته جرحتها بقساوة. أتراه ندم على اندفاعه الجنوني بائتمانها على أسراره؟ لا بد أنه كره فكرة أن يكون حساساً بأي شكل من الأشكال، وهو بحاجة إلى فرض سلطته مجدداً قبل أن تظن غرايس أنه ضعيف. قربها خافيير منه وعانقها، فأحست غرايس أنها عاجزة عن مقاومته. إنها لا تستطيع ردعه فيما النار تحرقها وتشعل اللهب في أحاسيسها. يا إلهي! ما الذي حدث لها؟ وجدت غرايس في مكان ما القوة على الابتعاد عنه قليلاً. أما وميض الانتصار البادي في عينيه الكهرمانيتين،

فجعلها تشعر بالغثيان. أرادت أن تقول له أي شيء، لكن بدا كأن لسانها ملتصق بسقف حلقها، فشعرت أنها عديمة الحيلة وهي تحدق به من خلال دموعها المترقرقة. خافيير سوف يحطمها خلال لحظات بتعليق ساخر كعادته. راقبت غرايس تحول عينيه إلى لون أغمق، وأحست بالتوتر الذي حلّ به فجأة. لكنها فوجئت حين استدار خافيير فجأة، فقادها إلى خارج حلبة الرقص من دون أن يتفوه بكلمة.

- خافيير، هل يمكنني أن أسرق منك خطيبتك لفترة قصيرة؟

تمتمت الكونتيسة فيما ألقت نظرة سريعة نحو غرايس، قبل أن تستقر عيناها على وجه خافيير الوسيم. ردّ خافيير ببرود: «أخشى أنه لا يمكنك ذلك، فنحن مغادران. كان نهار غرايس طويلاً وهي بحاجة إلى النوم».

زمت الكونتيسة شفتيها تجهماً وقالت: «إنها تبدو كالزهرة الرقيقة السريعة العطب خافيير. احذر بألّا تنهكها قبل حلول ليلة زفافكما».

لم يلقَ ذلك التعليق أي رد، أو بالأحرى لم تجد غرايس أي جواب يمكنها أن تفكر به في حالة التخدير هذه. لم تستطع إجبار نفسها على النظر إلى خافيير، فحدقت يائسة إلى الأرض. بدا لها أن هذا النهار امتد إلى ما لا نهاية. هل كان هذا الصباح بالذات هو اليوم الذي توجهت فيه نحو القصر، فعرضت على خافيير العمل لديه مقابل حرية والدها؟

كان الصحافيون ما يزالون يخيمون خارج الفندق، لكن غرايس شعرت بالارتياح لأن خافيير لم يبدِ اهتمامه بمجاملاتهم، فحماها بجسده فيما أسرع بإخراجها نحو سيارة الليموزين التي تنتظرهما. سألته بتهكم حتى تخفي مدى تأثيره القوي عليها: «هل أنت واثق من أنك لا ترغب بالتوقف لالتقاط المزيد من الصور للزواج السعيد؟»

أجابها خافيير: «أعتقد أننا أقنعنا الجميع أننا سوف نتزوج للأسباب الصحيحة. ألا تظنين ذلك عزيزتي؟ صباح الغد، سوف تنقل الصحف قصتنا الرومنسية الشبيهة بالإعصار».

حدّقت غرايس مرهقة إلى الخارج نحو آلاف الأضواء الأمامية للسيارات

المارة، فيما تهادت الليموزين عابرة الشوارع المكتظة. شيء ما في تصريح خافيير الأخير أزعجها، لكنها كانت شديدة الارهاق ولم تتمكن من التفكير بسبب ذلك الانزعاج. شعرت أن رأسها ينبض مختلجاً، وأحسّت أنها قادرة على النوم لمدة سنة من الزمن... ثم فكرت أنها ستنام بمفردها في سريرها الخاص. إنها ليست عمياء، فقد رأت النهم في عيني خافيير، وما زالت تحترق في ذهنها ذكرى جسده المتصلب العضلات، هل تراها ستضطر إلى خوض معركة معه هذه الليلة؟ أملت غرايس ألا يحصل ذلك، لأنها غير واثقة من فوزها.

استرخت بفعل تحرك السيارة برفق، فذبلت جفونها وأحست فجأة أن رأسها أصبح ثقيلاً. إلى جانبها بدا خافيير متوتراً، فنظر نزولاً نحو رأسها المستلقي على كتفه. ألقى انعكاس ظل أهداب غرايس الطويلة ظلالاً غامقة على وجنتيها، أما شفتاها فانشقتا وهي نائمة، فبدت بريئة كالطفلة.

ذكّر خافيير نفسه ساخراً أن هذا وهم بالطبع، فغرايس امرأة ناضجة تعرف تماماً ما الذي تفعله، فتحت هذه الواجهة المزينة بالخجل الجميل هناك امرأة تحسب الأمور تماماً كأي امرأة أخرى تعرف إليها. إنها فاسقة مدللة سمحت لوالدها بأن يخاطر بكل شيء لكي تحافظ على أسلوب حياتها المسرف المبذر.

لم تتحرك غرايس حين توقفت الليموزين في موقف السيارات السفلي. وضع خافيير يده على كتفها وهزها ليوقظها، لكنها بدت يافعة بشكل يفطر القلب فانقبض قلبه عليها. تمتم خافيير شتيمة تنم عن نفاد صبره، ثم رفعها بين ذراعيه وضمها إلى صدره، فيما حملهما المصعد نحو شقته الموجودة في الطابق الأعلى من المبنى.

لا بد أنه أصبح رقيقاً، فكر خافيير بذلك فيما وضع غرايس على السرير وأرخى سحاب فستانها. أجبر نفسه على مقاومة مشاعره. سوف يكون هنالك متسع من الوقت بعد زواجهما، لإشعال الانجذاب المتفجر بينهما. أمامه سنة كاملة ليستمتع بتلك الزهرة الطرية النضرة. أما هي فسوف تستمتع

بذلك أيضاً، فهو عاشق موهوب كريم جداً، وسوف يجد متعة في تدليلها ومغازلتها. أتراه أصيب بالجنون فجأة لينظر بشوق إلى السنة المقبلة عوضاً عن اعتبارها عقاباً له؟ تساءل خافيير عن ذلك، لكنه لم يتمكن من إيجاد جواب سهل، فسحب أغطية السرير بسرعة فوق غرايس، ثم أطفأ الأنوار قبل أن يخطو نحو الصالة، حيث سيعد لنفسه فنجاناً من القهوة هو فعلاً بحاجة إليه.

www.elromancia.com

٦ - أسيرة!

يجدر بها أن تعود إلى منزلها!

فتحت غرايس عينيها بسرعة فيما تسللت إلى ذهنها هذه الفكرة. كانت ليلة الأمس مرهقة جداً ومستنزفة للمشاعر فلم تتمكن من تحليل الأمر الذي يزعجها، لكنها تذكرت الآن شعور خافيير بالرضى لاهتمام وسائل الإعلام بهما لأن قصة خطوبتهما ستتصدر عناوين الصحف حول العالم. ما الذي سيستنتجه والدها من هذا الخبر؟ إنه لن يفهم ما يجري وسوف يشعر بالقلق، وذلك آخر ما ترغب بحصوله نظراً لحالته النفسية الحساسة. قذفت غرايس الأغطية إلى الخلف، ثم عبست لدى إدراكها بأنها نامت في ملابسها الداخلية، عوضاً عن ارتداء قميص للنوم. الفستان الأزرق الذي أمرها خافيير بارتدائه إلى مأدبة العشاء كان معلقاً على مسند الكرسي، وهي لا تتذكر أنها وضعته هناك. آخر أمر تذكره هو جلوسها في السيارة أثناء عودتهما إلى شقة خافيير. لا بد أنها غفت في السيارة. أيعني هذا أنه حملها إلى سريرها؟ ثم... من الذي نزع عنها ملابسها؟ لا بد أنها مدبرة المنزل. قررت غرايس ذلك فسرى الارتياح في جسدها، فيما اندفعت خارج الفراش. كانت قد جمعت بسرعة أغراضها القليلة حين توقفا لفترة وجيزة في الفندق الذي كانت تنزل فيه في غرناطة يوم أمس. وحين قام خافيير بتسديد فاتورة الفندق عنها، ثارت ثائرتها وغضبت فتجادلت معه بمرارة خلال رحلتهما بالطائرة نحو مدريد. أما الآن فقد أحست بقلبها يغوص في صدرها وهي تنقّب في حقيبة أغراضها. يبدو أن جواز سفرها وتذكرة العودة مفقودان. هل تراها وضعتهما في الدرج المجاور للسرير في الفندق، ثم نسيت أن

توضبهما مع أغراضها؟

أفرغت غرايس محتويات الحقيبة على الأرض، باحثة في كل شيء، لكن من دون جدوى. لعل خافيير يستطيع الاتصال بالفندق ليستفسر إن كان أحدهم قد وجدها. فكرت غرايس بذلك وهي تلبس بسرعة رداء الحمام وتنطلق بسرعة عبر الممشى، فيما لم تحتل رأسها أي فكرة سوى حاجتها الملحة لإيجاد جواز سفرها. قرعت على باب غرفة خافيير، لكنها لم تلقَ أي جواب، فأخذت تقفز من قدم إلى أخرى نافدة الصبر. لم تكن لديها أية فكرة عن الوقت، لكنها ترغب في العودة إلى لندن لتكلم والدها قبل أن يعلم عن الزواج المقبل من خلال إحدى الصحف.

قرعت غرايس الباب مجدداً، ثم فتحته بحذر. وجدت سرير خافيير فارغاً، فابتلعت ريقها لدى رؤية منظر الأغطية الحريرية القرمزية المجعدة بشكل فوضوي. فكرت أن شقة خافيير تتميز إلى حد بعيد بكونها شقة رجل أعزب، وحسبما يبدو فإن هذا الجناح المخصص للإغواء يبدو تجسيداً لهذه الفكرة بفضل السرير الضخم ذو الستائر المخملية البنفسجية و... يا إلهي! هناك مرآة هائلة معلقة في السقف.

خرج خافيير من الحمام المتصل بغرفة النوم، وتمشى إلى داخل الغرفة ثم قال: «صباح الخير غرايس. هل نمت جيداً؟»

راح يفرك شعره بمنشفة، وقد لف منشفة أخرى حول خصره. بدا جلده متوهجاً كالحرير.

- أنا... نعم... شكراً لك.

صعب على غرايس أن تفكر بشكل متماسك، ولم يكن بمقدورها إلا أن تحدق به بعينين متسعتين مصعوقتين. إنه وسيم جداً إلى درجة الألم. لا يحق لأي رجل أن يبدو جذاباً إلى هذا الحد.

- هل تريدين شيئاً؟

ضاقت عينا خافيير لدى رؤيتها ملتفة برداء الحمام. فهي حتماً تبدو أكثر نضارة مما كانت عليه ليلة الأمس بخديها المتوردين خجلاً. غرايس لا تشبه

أبداً خياراته المعتادة للنساء، فهو يفضل أولئك النبيلات الشقراوات المتميزات المتألقات. لكن لسبب ما، فإن هذه الوردة الإنكليزية الرقيقة ذات العينين الشبيهتين بعيني الغزال والابتسامة المحيرة تجعل الدماء تتدفق في عروقه بشكل مفاجئ.

غمغمت غرايس قائلة: «علي أن أعود إلى دياري».

أبعدت نظراتها عن جسده فركزتها على السجادة، ثم تابعت: «أنا بحاجة لرؤية والدي حتى أفسر له عن... الزواج وكل شيء... قبل أن يقرأ عن الموضوع في صفحات الجرائد، لكنني لا أستطيع إيجاد جواز سفري. لا بد أنني تركته في الفندق».

عبست حين أسقط خافيير المنشفة التي كان يستخدمها لتجفيف شعره على السرير، ثم تمشّى عبر الغرفة متجهاً نحوها.

- هلّا اتصلت بالفندق في غرناطة لتسأل إن كانوا قد وجدوه؟

- لا!

جوابه الموجز أثار غضب غرايس، فشبكت ذراعيها فوق صدرها، وهي تتمنى لو أنها ارتدت ملابسها العادية قبل أن تندفع بسرعة نحو غرفة نوم خافيير. تذكرت كيف جذبها خافيير إليه في الليلة السابقة ليعانقها بحرارة. أجبرت أفكارها على العودة إلى الحاضر لتقول: «هذا أمر مهم جداً، خافيير، يجدر بي أن أجد جواز سفري».

راقبها خافيير بصمت من خلال جفني عينيه المحجوبتين لفترة بدا لها أنها استمرت دهراً. إن الانجذاب الحسي بينهما واضح لا شك فيه. أقرت غرايس بذلك فيما أحست بنبضات قلبها تتسارع. لكن عليها أن تتذكر جيداً سبب وجودها هنا: إنه والدها! قالت: «خافيير... أرجوك».

- جواز سفرك موضوع في خزنتي المقفلة.

أخيراً قطع خافيير اتصال نظراتهما فابتعد عن غرايس حتى يذهب لإخراج قميص من خزانة ملابسه. راقبته غرايس وهو يدخل ذراعيه في كمي القميص قبل أن يبدأ بإقفال أزرارها، ثم قالت له: «لكن... كيف وصل إلى

هناك؟ هل سرقته من حقيبتي؟»

- أنا لم أسرقه. والدك هو اللص المحترف ولست أنا عزيزتي. أنا ببساطة أخرجته من حقيبتك لأبقيه في مكان آمن.

ظهرت بقعتان حمراوان على خديها وهي تقول: «اللعنة! عليك أن تعيده لي. لربما أكون محظوظة فأتمكن من تبديل رحلتي بأخرى تغادر اليوم نحو لندن».

ردّ خافيير بتعجرف: «أتتوقعين مني أن أسمح لك بالسفر والعودة إلى إنكلترا؟ سددت ديون والدك من حسابي المصرفي الخاص وأصبح حرّاً من خطر الملاحقة القانونية، فما الذي يمنعك الآن من التواري عن الأنظار والتنكر لاتفاقنا؟ افهمي هذا عزيزتي: أنا لن أدعك تفارقين نظري حتى يصبح خاتم الزواج في يدك، ويتم عقد زواجنا».

حاولت غرايس أن تطمئنه يائسة، فيما غاص قلبها تحت تأثير وميض العزم والتصميم البادي في عينيه، فقالت له: «لكنني أعدك بأنني لن أختفي. أعدك بذلك».

أجابها خافيير ساخراً: «أنت من آل بيريسفورد، فهل تتوقعين مني أن أصدقك؟ في مطلق الأحوال، ليس هنالك متسع من الوقت حتى تذهبي إلى إنكلترا. اليوم سوف نعود إلى قصر الأسد لنبدأ بالتحضير لزفافنا. هنالك الكثير من الترتيبات التي علينا القيام بها».

مرّرت غرايس إحدى يديها المرتعشتين من خلال شعرها، وهي تجاهد لإخفاء اضطرابها وخيبتها، ثم قالت: «أي نوع من الترتيبات؟ من المؤكد أننا سنجري مراسم مختصرة لا زواجاً شبيهاً بالقصص الخرافية».

أعلمها خافيير بتعجرف: «من الطبيعي أن يكون زفاف الدوق دو هيريرا حدثاً مهماً جداً. أعطيت التعليمات للموظفين لدي بأن يحضروا الطعام الكافي لعدة مئات من الضيوف من أفراد المجتمع الإسباني الراقي، وسوف تتم المراسم في كنيسة القصر».

تناول سرواله عن علّاقة الملابس ثم وجه إليها نظرة موجزة قائلاً: «رتبت

لك موعداً مع إحدى أهم مصممات الأزياء في مدريد لتأخذ مقاييسك من أجل إعداد فستان العرس لك، وهي سوف تصل قريباً. أقترح عليك أن تذهبي لارتداء ملابسك، إلا إذا كنت تنوين استقبالها برداء الحمام».

ارتفع حاجبا خافيير جزئياً، متابعاً: «بالرغم من أنني لا أعترض أبداً على مظهرك هذا عزيزتي».

ليتها تستطيع أن تصفع تلك الابتسامة الوقحة عن وجهه! لم تعد غرايس قادرة على الكلام بسبب الغضب، لكنها تذكرت والدها فغاص قلبها في صدرها. يجدر بها أن تقنع خافيير بشكل ما. همست قائلة: «كيف تظن أن أنغوس سيشعر لو أنه قرأ عن علاقتنا هذه في الصحف؟»

- أتصور أنه سيعتقد أنك فتاة ذكية جداً. من الواضح أنه أرسلك إلى القصر لتحاولي إغوائي وإقناعي بمساعدته، لكنك عوضاً عن ذلك ربحت الجائزة الكبرى، أي الزواج بمليونير سوف يعيد سجلّه نظيفاً.

المقت البادي في صوت خافيير جعل غرايس ترغب بالاختفاء عن وجه الأرض، لكنها قالت بحدة: «لم تكن لدى والدي أية فكرة عن... قدومي إليك، وهو سوف يصاب بصدمة لو علم بحقيقة ما أقوم به، وقد يفعل كل ما بوسعه ليحاول منعي من القيام بهذه الخطوة».

- إذاً فنحن محظوظان لأن الفرصة لن تسنح لك لرؤيته قبل أن يجف الحبر على شهادة زواجنا جيداً، فأنت مضيت في هذا الاتفاق ولست قادرة على التراجع الآن.

ألقى نظرة نافدة الصبر إلى ساعة يده، وقال: «الوقت يمر بسرعة، وأنا أريد أن أرتدي ملابسي».

انطلقت غرايس بسرعة خارج الغرفة وصفقت الباب خلفها، بعد أن أطلقت صرخة تنم عن الاحباط. إنها تكرهه! قالت غرايس ذلك لانعكاس صورتها في المرآة، فيما ارتدت سروالاً من الجينز مع قميص قطنية. مسحت الدموع المنهمرة من عينيها وهي تفكر أن خافيير قاس، عديم الرحمة وغير قادر على المسامحة أبداً. لكنه سوف يصبح زوجها على مدى سنة كاملة.

إنها عالقة هنا من دون جواز سفرها، ما يعني أن الهرب أمر مستحيل.

أحست غرايس لبضع لحظات أن مشاعر الرعب التي ساورتها حين اكتشفت لأول مرة مدى خطورة مشاكل والدها المالية بدأت تهدد بالسيطرة عليها مجدداً. ما كان يجدر بها أن تدنو من خافيير هيريرا أبداً، لكن فات الأوان على الرجوع إلى الوراء الآن.

أخيراً، حين خرجت غرايس من غرفتها بعد أن ذرفت الكثير من الدموع وجدت خافيير في المطبخ جالساً إلى منضدة الفطور وهو يقرأ الصحيفة. حياها ببرود وقد لاحظ بعينيه الحادتين المتفحصتين أن هالتين زهريتي اللون تحيطان بعينيها. قال لها: «هنالك قهوة في الإبريق، وهناك عصير فاكهة. ما الذي ترغبين بتناوله؟»

- أنا لست جائعة، شكراً.

تحاشت غرايس النظر إليه، فركزت على سكب كوب من عصير الليمون.

- بالكاد لمست طعامك ليلة الأمس. أنت بحاجة إلى الطعام.

- قلت لك إنني لست جائعة. أنا نادراً ما أتناول طعام الفطور.

جاءت نبرة غرايس هذه المرة أكثر حدة، مع ذلك ظلت ترفض النظر إلى خافيير. جلست على كرسي خشبي من دون مسند، فبدت صغيرة الحجم وسريعة العطب إلى حد كبير. تصلب فك خافيير، فأجبر نفسه على النظر إلى صحيفته. يبدو أن غرايس أثرت به كما لم تفعل أية امرأة أخرى، وبدا ذلك مزعجاً جداً بالنسبة إليه.

- المقالات المتعلقة بخطوبتنا نُشرت في العديد من الصحف، وصورك فيها ناجحة.

قال خافيير ذلك وهو يحدق بصورته مع غرايس وقد بدت ممسكة بذراعه وهي ترفع رأسها لتنظر إليه مبتسمة. أقر لأول مرة أنها تشعر بالخوف تحت هذا الستار من الشجاعة الذي تبديه. أضاف بهدوء: «أنا لم أقل لك ذلك ليلة الأمس، لكنك بدوت جميلة جداً».

تعمدت غرايس تجاهل الصحيفة التي أمسكها خافيير ومدّها نحوها،

لكنها لم تتمكن من السيطرة على اللون الخفيف الذي غمر وجنتيها، فقالت: «سأصدق كلامك بهذا الخصوص».

التوهج الذي ظهر في عينيها أثار اهتمام خافير. لا بد أنها تدرك تأثيرها عليه، فقد لاحظ نظراتها إليه قبل قليل، واتساع عينيها عندما انتبهت إلى المرآة فوق سريره. ولا بد أنها مدركة أيضاً للجاذبية التي تغلي على مهل بينهما، تماماً كما يدركها هو. لكنه لم يفهم لماذا لم تستطع أن تقر بها بكل صراحة وصدق، عوضاً عن القيام بكل هذه الألاعيب. كانت غرايس قد أنهت كوب العصير وراحت تنظر في أرجاء المطبخ، فسألها خافير بفضول: «ما الذي تبحثين عنه؟»

جاء جوابها فورياً: «أتساءل أين هي مدبرة المنزل. أنا لم أرها بعد».

- أخبرتك أن يوم أمس كان يوم عطلة بيلار، وهي لن تعود قبل المساء.

لفت هذا الأمر اهتمام غرايس، فأدارت رأسها وحدقت بخافير قائلة: «من قام إذاً بنزع الملابس عني ووضعني في السرير مساء الأمس؟ لا تقل لي إنك أنت من فعل ذلك؟»

التمعت عيناها بدموع الغضب والحنق، فرمشتهما بصعوبة حتى تتخلص منها، ثم تابعت: «اللعنة، كم أنت مغرور! تظن أن بمقدورك أن تفعل ما شئت، لكنك لا تملكني».

تمتم خافير بنبرة عذبة: «ليس بعد، عزيزتي».

في تلك اللحظة سُمع رنين جرس الباب، فقال خافير: «أعتقد أن مصممة الأزياء قد وصلت».

تمهل في المدخل وحدّق بغرايس قائلاً: «لماذا كنت تبكين؟»

- أنا لم أكن أبكي.

الالتواء الخفيف الذي ظهر على حاجبي خافير أظهر بوضوح عدم تصديقه لكلامها. أما غرايس فهزّت كتفيها وفكرت، ما الهدف من الكذب على خافير في حين أن عينيه الذهبيتين تخترقانها وتشاهدان ما في داخل روحها؟ قالت بمرارة: «أنا قلقة على والدي. أعرف رأيك به، وأعلم أنك

لا تتفهم مشاعري، فالحب شعور غريب جداً عليك خافير. أليس كذلك؟»

- أسقطت جميع التهم الموجهة ضد أنغوس. اتصل المحامون الخاصون بي في وقت سابق من هذا الصباح وأعلموني بذلك.

لاحظ على الفور أن الارتياح ظهر بوضوح على وجهها.

همست غرايس بحماس: «الحمد لله! هل يمكنني على الأقل أن أتصل به لأطمئنه بأنني على ما يرام؟»

أبعد خافير عينيه بالقوة عنها، فمشى بخطوات واسعة إلى خارج المطبخ وقال: «لاحقاً. أما الآن فهنالك أمور أكثر أهمية يجدر القيام بها».

* * *

في فترة متأخرة من بعد الظهر انضمّت سيارة الليموزين إلى طابور السيارات المتوجهة نحو المطار. أمضت غرايس الرحلة محدّقة خارج النافذة، ضائعة في أفكارها، غير مدركة لتحديق خافير المتفكر الذي يتفحص وجهها الباهت اللون. تكلم خافير فجأة وهو يقلب حقيبة أوراقه فيفتحها، ويخرج جواز سفر غرايس منها قائلاً: «تفضلي. سوف تحتاجين إلى هذا».

ردّت غرايس بارتباك: «لن أحتاج إلى إظهاره في رحلة داخلية».

تجنب ملاقاة عينيها بنظره فيما قال: «هنالك طائرة خاصة بانتظارنا لتقلّنا إلى إنكلترا. سوف نصل في وقت متأخر من هذا المساء، ثم نعود لنطير عائدين إلى غرناطة مساء الغد. لكنك سوف تحظين بنهار كامل تمضينه برفقة والدك».

أخبرها خافير ذلك بنبرة صوت تحذرها من سؤاله عن سبب تغييره المفاجئ لخطته. ابتلعت غرايس الكتلة التي كانت تسد حلقها، ثم لفت أناملها حول جواز سفرها، وأظهرت له ابتسامة غير واثقة فيما قالت: «لست أدري ما أقوله... وكيف أشكرك».

نصحها خافير ببرود: «لا تقولي شيئاً، عزيزتي. سوف يكون هنالك متسع من الوقت لتشكريني خلال ليلة زفافنا، وأنا أقر أنني أتلذذ بانتظارها وتوقعها».

www.elromancia.com

أحست غرايس أن وهج السعادة القصيرة التي انتابتها قد تلاشى، فأطبقت يدها على جواز سفرها وضمّته إلى صدرها كما لو أنه حبل للنجاة. قالت: «ما كنت لأفعل ذلك لو كنت مكانك، فلدي شعور أن ظنك سيخيب بشكل كبير».

توقفت سيارة الليموزين فقفز السائق خارجاً حتى يفتح الباب لهما. وفيما كان خافيير يستعد للخروج من السيارة، تغيرت تعابير وجهه العابسة إلى ابتسامة شديدة الجاذبية، جعلت غرايس تشعر بوخز في بشرتها، ثم تمتم قائلاً: «آمل ألا يحصل ذلك، عزيزتي».

بعد مضي عدّة ساعات، أوقف خافيير السيارة المستأجرة في شارع جانبي ضيق بالقرب من الواجهة البحرية في إيست بورن. فكرت غرايس أن المنزل يبدو جميلاً نوعاً ما بفضل دهانه التبني اللون وأصص الأزهار المعلقة على نوافذه، لكنها تشك في أن الدوق دو هيريرا قد أقام يوماً ما في منزل إنكليزي صغير بقرب الشاطئ كهذا.

طالبها خافيير حين تباطأت في الخروج من السيارة: «هيا بنا! ما الذي تنتظرينه؟ ألم تجلسي هنا لمدة كافية؟ هذه ليست سيارة، بل هي لعبة مصممة للأقزام. كان يجدر بنا الإقامة في فندق قرب المطار، ثم زيارة والدك يوم غد».

بدا خافيير نافد الصبر حتى يتمكن من تمديد رجليه الطويلتين، لكن غرايس ترددت وعضت على شفتها، ثم فسرت له بهدوء: «أردت رؤية والدي بأسرع وقت ممكن. خافيير... أعلم أنك تظنني وضعت خطة وإياه تقضي بأن... أقدم لك نفسي مقابل حريته، لكن هذا ليس صحيحاً. أنغوس لا يدرك أنني ذهبت لأطلب مساعدتك، وأنا لا أريده أن يعرف أبداً السبب الحقيقي لزواجنا».

توقفت غرايس عن الكلام وقد أصبحت وجنتاها قرمزيتي اللون، ثم تابعت: «يجدر بنا أن نقنعه بأننا مغرمان، وبأنك مستعد لأن تسامحه على سرقة الأموال من المصرف لأنك... تهتم لأمري».

- وكيف تفترضين أن أفعل ذلك؟

التمعت عينا خافيير الغاضبتان فيما تذكر خيانة أنغوس بيريسفورد للثقة التي وضعها به. حدّق بغرايس ولم يلحظ فقط شعورها بالاحراج، بل أيضاً اليأس التام البادي في عينيها. فاستفسر قائلاً: «أتريدينني أن أتصرف كما لو أنني مغرم بك؟»

ضغطت على نفسها لتتابع قائلة: «سوف نقول له إنني زرتك في إسبانيا حتى أتوسلك لتتفهم وضعنا، فوقعنا في الحب المتبادل من النظرة الأولى. وسوف نتزوج بهذه السرعة لأننا...».

- ... لا نستطيع أن نبقي أيدينا بعيدة عن بعضنا؟

ظهر بريق أسنانه البيضاء المناقضة لبشرته السمراء، حين ابتسم لغرايس ابتسامة شريرة.

ردت غرايس موافقة: «شيء من هذا القبيل».

فيما نظرت إلى خافيير بحذر وهو ينحني فجأة نحوها. قبل قليل بدا خافيير محجوزاً في هذه السيارة الضيقة قريباً جداً منها إلى حد لم يشعرها بالراحة. أما الآن فالتهبت أحاسيسها عندما استشعرت عطره الذي تفوح منه رائحة المسك. قالت له: «ما الذي تفعله؟»

همس بنعومة: «أنا بحاجة إلى التمرن على هذا الذي يدعونه حب. فكما تعلمين، إنه ليس شعوراً مألوفاً لدي عزيزتي. هل تظنين أن أنغوس سيطمئن لو عانقتك بهذا الشكل؟»

احتكت بشرة خافيير بها في مداعبة بطيئة رقيقة، جعلت أحاسيسها تضج مطالبة بالمزيد. رفع رأسه لوهلة فحدق في عينيها كما لو أنه يبحث عن جواب لسؤاله الصامت، ولا بد أن ما رآه في أعماقهما قد أرضاه، لأنه أسرها مجدداً في عناق مخدر جعلها تذوب.

تسللت يداها لتحيطا بعنقه، فيما نقل هو بدوره عناقه إلى مستوى أكثر عمقاً. أنّت غرايس بنعومة فألقت برأسها فوق صدره، تلاشى الواقع حينها، فتركها أسيرة الأحاسيس المحضة. بعد قليل رفع رأسه ليحدق بها نزولاً، وقد

التمعت عيناه الكهرمانيتان ككرتين حارقتين، ثم تشدّق ببرود قائلاً: «هل هذا كافٍ، غرايس؟»

استنشقت غرايس نفساً حاداً، ثم أبعدت نظرها عن نظراته الساخرة وقالت: «أنا أكرهك».

قفزت إلى الوراء مبتعدة عنه، وراحت ترتب هندامها ساخطة بسبب ردة فعل جسدها الخائن. قالت: «أتمنى أن تحترق بنار جهنم، لكننا الآن عالقان مع بعضنا، لذا دعنا ننجز الأمر».

اندفعت غرايس خارجة من السيارة قبل أن يتمكن خافيير من التفوه بكلمة أخرى، فأسرعت الخطى على طول الرصيف صعوداً على الدرب المؤدي إلى منزل الضيوف الخاص بالعمة بام. أما قلبها الخائن فقفز في مكانه حين لحقها خافيير فلف ذراعه حول خصرها.

حيتها العمة بام قائلة: «غرايس! أشكر السماء لمجيئك إلى هنا، فوالدك ليس على ما يرام. زاره محاميه هذا الصباح، فقال له شيئاً بشأن التهم الموجهة ضده، لكنني لا أفهم ما الذي يجري».

فيما هي تتحدث استقرت عيناها على خافيير، فقالت: «لم أدرك أنك ستحضرين معك صديقاً».

- هذا... خافيير هيريرا.

أجفلت المرأة، فوضعت غرايس يدها على ذراعها وقالت متابعة: «لا بأس بذلك بام، فنحن صديقان... حسناً! أكثر من مجرد صديقين».

أحست أن وجنتيها تتحولان إلى لون زهري تحت تأثير تفحص العمة بام المصدومة.

- هل قرأ أبي أية صحف اليوم؟

من الواضح أن العمة بام لم تعد تجد الكلمات المناسبة لتقولها، فيما أرشدتهما إلى الداخل. قالت: «ليس على حد علمي. لكن لأكون صريحة معك غرايس، لا شيء يبدو منطقياً بالنسبة إليه في هذه اللحظة على كل حال. إنه يعيش في عالمه الخاص».

فجأة بدت عينا العمة مشرقتين بشكل يدعو إلى الشك، إذ قالت: «إنه ما ينفك يسأل عن مكان والدتك، ولا يطاوعني قلبي على تذكيره بموتها. إنه في غرفة الجلوس».

أضافت وهي تحملق بخافيير: «لست أدري لماذا أحضرتك غرايس إلى هنا. أنا أدرك أن أخي قام بعمل مريع بأخذه كل تلك الأموال، لكن إن أردت إزعاجه، فلن تفعل ذلك إلا فوق جثتي».

طمأن خافيير المرأة الأكبر سناً قائلاً: «لا رغبة لدي بإغضاب أنغوس. أنا هنا لكي...»

توقف للحظة، ثم حدّق بغرايس وتابع: «...أقدم له مساعدتي. أريد مساعدة أخيك».

طالبته العمة بام قائلة: «ولماذا تفعل ذلك؟»

تمهل خافيير مجدداً، فسمح لعينيه بالمرور ببطء فوق غرايس، ثم قال: «لأنني مغرم بابنته، وآمل أن يبارك علاقتنا، لأنني أنوي الزواج بها».

أحست العمة بام ولأول مرة في حياتها أنها لم تعد تجد الكلمات التي تقولها. فقالت: «حسناً! أنا... لكن متى تعارفتما؟ من غير الممكن أن تكونا قد عرفتما بعضكما لأكثر من خمس دقائق».

قالت غرايس بهدوء: «علمت لحظة رأيته بأن خافيير هو الرجل المناسب لي، وبأنني سوف أحبه لبقية حياتي».

لم تجرؤ على النظر إلى خافيير خشية أن ترى السخرية في عينيه، لكن عينيها تحركتا نحو وجهه بإرادتهما الخاصة، وعوضاً عن السخرية لاحظت غرايس شعوراً مثيراً للاهتمام لا يمكن تعريفه.

قالت العمة بام مجدداً: «حسناً! لا بد أن ذلك يجري بالوراثة في العائلة. فوالدك أغرم بسوزان من نظرة واحدة، ولطالما قال إنه غير قادر على العيش من دونها. للأسف، يبدو ذلك صحيحاً».

- آمل أن يتفهم علاقتي بخافيير.

قالت غرايس ذلك بحماس فيما خطت داخل غرفة الجلوس. رأت

أنغوس جالساً على كرسيه وهو يحدق في الفراغ نحو الحديقة، فتابعت تقول: «بفضل خافيير لن تتم ملاحقته قانونياً».

رمت غرايس ابتسامة مرتعشة نحو خافيير، ثم ركعت بالقرب من والدها قائلة: «أبي، هذه أنا... غرايس».

- مرحباً، يا حلوتي.

سماع صوت غرايس أيقظ أنغوس من أحلام اليقظة، فحدق بابنته وأشرق وجهه النحيل بابتسامة باهتة. قال والدموع تترقرق من عينيه: «غرايس... أنا غير قادر على إيجاد والدتك».

- سوف أحضرها لك، أبي.

وعدته غرايس بذلك برقة، مدركة أن والدها يقصد صورة والدتها التي اعتاد أن يضعها إلى جانب سريره في ليتل كوت. كانت الصورة موضبة في مكان آمن في إحدى علب التخزين، وهي لن ترتاح حتى تجدها لأجله. ضغطت غرايس على ذراعه مطمئنة، وقالت: «لدي ما أخبرك به».

٧ - لا... أرجوك!

- سيدي، حان وقت الذهاب.

الصوت القادم من مدخل الباب أزعج تأملات خافيير الصامتة للمنظر الممتد أسفل برجه العالي، فتصلّب ثم تمتم وهو يخطو بعيداً عن النافذة، موجهاً إلى كبير الخدم إيماءة موجزة: «شكراً توريس. هل بات كل شيء جاهزاً؟»

- نعم. لقد اجتمع الضيوف في الكنيسة.

- والآنسة بيريسفورد؟

- إنها تنتظر في غرفة الاستقبال. وأنا سأرافقها إلى الكنيسة كما اتفقنا.

- جيد.

سعل خافيير لينقي حلقه، ثم قال مخاطباً كبير الخدم: «أخبرني توريس، كيف تبدو السنيوريتا بيريسفورد؟»

لم يقوَ توريس على إخفاء ارتباكه، فقال: «كيف تبدو سيدي؟»

- نعم. هل تبدو... سعيدة؟

حدق خافيير بالرجل الآخر بنفاد صبر، أشرق وجه توريس، وقال: «بالطبع... قريباً سوف تصبح الدوقة الجديدة، ومن الطبيعي أن تكون في نشوة من السعادة. و... إذا كان بمقدوري أن أضيف، فهي تبدو جميلة جداً».

أطلق كبير الخدم ابتسامة ذات دفء أصيل حقيقي، لكنها لم تسهم في تهدئة مزاج خافيير. فهو يشك بأن غرايس تشعر بالسعادة لاحتمال أن تصبح عروسه. إنها أبعد ما تكون عن ذلك.

www.elromancia.com

لا شك في أنها تبدو متميزة جداً في فستان عرسها. لكن خافيير شعر بشيء من الغرابة لأن كبير خدمه عبَّر عن إعجابه بها بمثل هذه الحماسة. هو لم يكن يعلم حتى بقدرة توريس على الابتسام قبل وصول غرايس إلى قصر الأسد. لطالما بدا القصر مكاناً بشعاً ومروعاً إلى حدّ ما، وكذلك بدا الموظفون فيه. لكن يبدو أن ذلك تغير بشكل ما خلال الأسابيع الثلاثة المنصرمة. والفضل في ذلك يعود إلى تأثير الوردة الإنكليزية الرقيقة، التي بدت قادرة بابتسامتها الناعمة على تفتيت قساوة هذه القلعة. أقر خافيير بعبوس أنها لم تكن تبتسم له. بدت غرايس لطيفة مع موظفي القصر، واستطاعت بتصرفاتها الهادئة أن تستحصل على رضاهم الفوري. لكنها ظلت باردة متزمتة معه، في حين أن حذرها منه راح يزداد يومياً. أصبح وقت العشاء كل مساء محنة بالنسبة إليه، بالرغم من توقه إلى كسر تحفظها حتى يتلقى هو بدوره إحدى ابتساماتها الخجولة التي كانت توجهها بطيبة خاطر إلى كل شخص سواه في هذا القصر.

- سيدي، هل يمكنني أن أحضر لك شيئاً ما؟

توريس متدرب على عدم إظهار نفاد الصبر، لكن خافيير أدرك أنه يخشى من أن يشعر الضيوف الذين ينتظرون في الكنيسة بالضجر. فكر خافيير، ما الذي قد يظنه به كبير الخدم لو علم أن غرايس تتزوجه فقط لأنه أجبرها على ذلك؟.

صعق خافيير لإدراكه أنه لم يفكر حتى بمصرف هيريرا لعدة أيام. أليس السبب الوحيد لاهتمامه بهذا الزواج هو كونه وسيلة للحصول على ما يحق له بالولادة؟ تذكر كيف تعلقت بوالدها لدى نهاية رحلتهما القصيرة إلى إيست بورن؛ التمعت عيناها الزرقاوان الكبيرتان بالدموع، فيما ارتعش صوتها وهي تخبر أنغوس بيريسفورد بمقدار حبها له. أقر خافيير بتثاقل أن غرايس مستعدة لفعل أي شيء لأجل والدها، حتى الزواج من رجل تمقته بوضوح.

- سيدي؟

- حسناً! أنا قادم.

لا جدوى من أن يعاني هجوماً غير ضروري من قبل ضميره الآن. إنه وغرايس عقدا اتفاقاً، وهو وفى مسبقاً بجانبه منه. ذكر خافيير نفسه بذلك فيما مشى عبر الغرفة وتبع توريس. من الأفضل أن يتذكر أن الفضل يعود إليه لأن والد غرايس الغشاش النصاب ليس قابعاً في السجن بانتظار محاكمته بتهمة الاحتيال.

بعد رحلته إلى إيست بورن، أدرك خافيير أن أنغوس لم يعد يشبه البتة الرجل الهادئ الرصين الذي كان قد عينه لإدارة الفرع البريطاني من مصرف هيريرا منذ ثلاث سنوات. بدا والد غرايس مثيراً للشفقة بوجهه الهزيل ويديه المرتعشتين. كما أن خافيير صُدِمَ فعلاً لرؤية اضطرابه النفسي الواضح. ما الذي جعل أنغوس يفكر بالاختلاس؟ لم تكن هنالك دلائل واضحة على أنه استفاد من الملايين التي سرقها. بدا رجلاً منكسراً، بعيداً عن حياة البذخ والرفاهية، وقد أُجبر على اللجوء إلى شقيقته لكي توفر له المسكن. ما الذي فعله إذاً بتلك الملايين؟ هل تراه صرفها كلها على غرايس؟ قبل أن تدخل غرايس حياته، كان خافيير يظن صدقاً بأن ابنة أنغوس بيريسفورد هي فتاة مدللة متواطئة مع والدها في البحث عن الثروة، ويسرّها أن تعيش على حساب نشاطات والدها المحتال. لكنه أُجبر بعد مرور الأسابيع القليلة الماضية أن يتقبل حقيقة أن غرايس لا تشبه البتة ما تصوّره عنها.

نظر إلى صورة الدوق السابق، فيما عبر صالة الدخول الواسعة. منذ لحظة وصوله إلى القصر وهو صبي يافع، لقنه كارلوس هيريرا مبدأ الاعتقاد بأن القوة هي كل شيء، وأن المشاعر كالحب والتعاطف هي للضعفاء فقط، أما أسد آل هيريرا فصلب قوي، ويمشي دوماً بمفرده. أقر خافيير بتثاقل أن لا مكان في قلبه لغرايس بيريسفورد، لكنه لم يستطع إخراجها من ذهنه. إنها مجرد فتاة غير ملفتة للنظر بملامح وجهها الرقيقة وشعرها البني الناعم لو قورنت مع عشيقاته العديدات. مع ذلك سيطرت على أفكاره وطاردته في أحلامه. لكن الانجذاب الحسي هو الشيء الوحيد الذي يشعر به تجاه غرايس. ذكّر خافيير نفسه بذلك بحدّة. إنه يرغب بها، وسوف يحصل عليها

الليلة . . . ليلة زفافهما.

طمأن نفسه وهو يعبر الباحة الخارجية متوجهاً نحو الكنيسة بأن غرايس تدين له. لم يفهم لماذا اختلس والد غرايس تلك الأموال، لكن تصرفات أنغوس أدت بكارلوس هيريرا إلى التشكيك بأحكام خافيير، فأضاف شرط الزواج إلى وصيته. لذلك من المنصف أن تحترم غرايس جهتها من الاتفاق، فتصبح زوجته وتؤكد له حصوله على موقعه في رئاسة مصرف هيريرا.

* * *

إنها الآن متزوجة! حركت غرايس بتوتر الخاتم الذهبي البسيط في إصبعها، فوجدته عالقاً بإحكام. كان خافيير قد وضعه في إصبعها بسهولة في وقت سابق من هذا النهار، لكنها في ذلك الوقت كانت تشعر بالبرد بسبب أعصابها المتوترة. أما الآن فهي تشعر بالحر بسبب جلبة الأصوات المنبعثة من أرجاء قاعة الاستقبال. يا له من نهار طويل! بالكاد تطيق صبراً حتى ينتهي هذا اليوم. لكن اللمعان الدال على الترقب في عيني خافيير الكهرمانيتين يتوعدها بأن يكون الليل أكثر مشقة من نهار زفافهما. جعلت هذه الفكرة معدة غرايس تتقلص.

بعد انتهاء العشاء، راح الضيوف يتبادلون الأحاديث. كان خافيير يقف برفقة مجموعة من الأشخاص الذين لم تلتقهم غرايس من قبل، وخمنت أن معظمهم على الأرجح شركاء في أعمال خافيير. قدمها خافيير إلى بعض أفراد عائلته، وبالتحديد إلى نسيبه لورنزو بيريز، أي الرجل الذي سينتزع منه رئاسة المصرف إذا ما فشل في إيجاد عروس يتزوجها. تساءلت غرايس هل يدرك لورنزو السبب الحقيقي لزواجهما المتسرع؟ هل يعلم بذلك أي شخص آخر هنا باستثناء المحامي رامون أغويلار؟

كان خافيير قد أصر على أن يبقى الأمر سرّاً. إنه رجل فخور جداً، واستشعرت غرايس أن هذا الشرط جرحه. راحت تنظر إليه غير قادرة على انتزاع نظراتها عن وجهه الوسيم. حين رأته واقفاً بانتظارها أمام المذبح بدا لها بارداً وبعيداً لكنه رائع إلى حد الدمار، فأحست بجاذبيته القوية تغمرها

بالكامل. فجأة بدت رجلاها غير قادرتين على حملها، فتعلقت بذراع توريس وهو يرافقها إلى داخل الكنيسة.

بدت مراسم الزفاف مؤثرة جداً، فملأت الدموع عينيها حين تلت عهودها بصوت مرتعش لشدة تأثرها. لطالما حلمت بالزواج من رجل يشكل توأم روحها، وها هي عالقة في اتحاد خال من الحب مع رجل غالباً ما يتكلم عنه موظفوه بلقب أسد آل هيريرا. سمعت غرايس صوتاً ساخراً مألوفاً في أذنها قائلاً: «حاولي ألا تبدي مأساوية إلى هذا الحد، عزيزتي، فضيوفنا سيظنون أننا نخوض أول شجار عاشقين».

وجود خافيير المفاجئ إلى جانبها جعلها تقفز مرتعبة. لاحظ بنظره الثاقب الظلال الباهتة في عينيها، فسألها: «ما الخطب؟»

سحب كرسياً وجلس بالقرب منها، فتنشقت غرايس رائحة عطره الممزوجة برائحة المسك بالإضافة إلى عبير آخر غير محدد يدل على القوة المطلقة. عضت على شفتها وقالت: «لا شيء. . . فقط أفكر بوالدي. . . لم أتصور أبداً أنني قد أكون وحيدة خلال يوم زفافي».

قال خافيير بقساوة: «أنت بالكاد تبدين وحيدة، فهنالك أربعماية من الضيوف المدعوين هنا».

غمغمت غرايس متهكمة: «لكنني لا أعرف أياً منهم. إنهم ليسوا أصدقائي أنا، بالرغم من أنني أشعر بالفضول لأعرف إذا كان أي منهم صديقك أنت، أو أن زواجنا هو مجرد فرصة رائعة لإقامة العلاقات والاتصال بشركائك في العمل؟»

رد خافيير بنبرة صوت جليدية: «حسناً! لن تضطري إلى تحمل وجودهم لفترة طويلة، عزيزتي. فالحفلة سوف تنتهي خلال ساعة ولن يجرؤ أحد على التمهل. لا بد أنهم يعرفون كم يكاد ينفد صبري حتى آخذ عروسي إلى سريري. لكن فقط، في حال انتابتهم أية شكوك. . .»

أنزل خافيير رأسه فأسر غرايس بعناقه بدقة جعلتها مسلوبة الأنفاس. قبضت أنامل خافيير النحيلة عليها، ممسكةً إياها بإحكام فيما تابع عرضه

لضيوف العرس، كاشفاً عن توقه ليحمل دوقته إلى الأعلى. . . إلى غرفته.

فكرت غرايس مخدرة، أنه يجدر بها أن تقاومه وتدفعه بعيداً عنها. طيلة فترة العشاء راحت تبحث عن الكلمات المناسبة لتقول له إن لا نية لديها بإتمام زواجهما المزيف. كذبت في الكنيسة حينما تلت عهودها، لكنها سوف تكون صادقة مع قلبها، فهي ترفض أن تسلّم جسدها لرجل لا تحبه. يجدر بها أن تقول له ذلك الآن، كي لا يعتقد أنهما على وشك تمضية ليلة من الشغف والهيام. لكن صعب عليها التفكير بصواب فيما ذراعاه تغمرانها وتضمانها إليه بقوة وإحكام.

إنها لم تشعر بإحساس مماثل من قبل. لم تختبر أبداً أحاسيس هائجة تلتهمها وتستنفد قواها، فتجعل جسمها يتألم.

أخيراً قطع خافيير العناق وحدّق نزولاً نحوها، وقد ظهر تألق عنيف ضار في عينيه فيما لاحظ الارتباك بعينيها. قد لا تكون وردته الإنكليزية معجبة به، لكنها أسيرة هذا الانجذاب الحسي البدائي الذي يستعبده هو أيضاً. لاحظ خافيير ذلك وقد أحس بجيشان من الرضى في داخله.

التوى فمه بابتسامة فظة لدى رؤية تعابير الصدمة على وجهها، فقال: «سأطلب من توريس أن يعلن حلول موعد النخب الأخير للعروسين. حان موعد عودة ضيوفنا إلى منازلهم».

- لا يمكنك أن ترميهم خارجاً. ماالذي سيظنونه؟

أخبرها خافيير بغرور فائق: «لا أكترث البتة لما يفكرون به. أنا أشعر بنهم شديد تجاهك عزيزتي، ولتذهب اللياقات الاجتماعية إلى الجحيم».

استنشقت غرايس نفساً عميقاً وقالت: «خافيير. . . أنا. . . لا أريد أن أنام معك».

رفع خافيير كأس العصير فشربه بجرعة واحدة قبل أن ينظر نحوها وقد امتلأت عيناه المثقلتان بالتسلية، ثم قال: «أنا أيضاً لا أرغب بالنوم معك، فأنا أنوي الانغماس بنشاطات أخرى أكثر متعة ولهواً خلال ساعات الليل الطويلة».

مرّر عينيه ببطء عليها في تقدير صادق جداً، إلى حد أنها احمرّت خجلاً. أما خافيير فضحك ضحكة مكتومة وقال: «إن ادعاءك البراءة أمر مثير جداً عزيزتي، وأنا واثق من أنك تدركين ذلك».

ثم تشدق متابعاً: «لكن لن تضطري إلى ادعاء ذلك بعد الآن. فأنا أفضل المرأة الواثقة من سحرها، ولدي توقعات كبيرة بأنك ستتصرفين كاللبوة في السرير».

- لا تعتمد على ذلك.

أجبرا على قطع حديثهما حين اقتربت امرأة شابة من طاولتهما، وقد ثبتت عينيها بحزم على خافيير. قالت له بنزق يظهر حدّة طباعها: «بحثت عنك في كل مكان. وعدتني بأن ترقص معي».

أجابها خافيير برصانة قائلاً: «نعم. لكن كما ترين، أنا أتحدث مع زوجتي. لمَ لا تطلبين من أحد معجبيك الشبان العديدين بأن يراقصك؟»

جاء ردّها الحاد: «أنا أريد أن أرقص معك فقط».

أحست غرايس برفرفة غريبة في معدتها لدى سماعها كلمة «زوجتي»، فلم تستطع حمل نفسها على ملاقاة نظرات خافيير. عوضاً عن ذلك تفحصت الشابة التي راحت تحدق بخافيير وقد بدا الاعجاب واضحاً في عينيها. اشتدت أعصاب غرايس في انتظار أن يقوم خافيير بتدمير الفتاة بإحدى تعليقاته الساخرة الفظة، لكنه عوضاً عن ذلك ابتسم لها ابتسامة دافئة، فأشرقت عيناه ورقّت ملامح وجهه القاسية.

- أنا آسف. وفري لي رقصة لوقت لاحق. انظري، أعتقد أن والدك يستعد للمغادرة.

- لم يحن منتصف الليل بعد. إن بابا ممل جداً.

كورت الفتاة شفتيها تجهماً، ثم هزّت شعرها الأجعد الأسود اللون في حركة تعمدت أن تبدو جذابة، فيما تجاهلت غرايس تماماً. بعدئذٍ تمتمت: «إلى المرة المقبلة إذاً خافيير».

نفخت له قبلة في الهواء قبل أن تستدير على عقبيها وتمشي عبر الغرفة.

قال خافيير لغرايس: «ميغيل سوف يعاني من المشاكل مع تلك الفتاة».

تتبعت غرايس نظرات خافيير نحو الفتاة التي تتمايل برشاقة، فغمرها إحساس يشبه الغيرة. سألته بحدة: «إنها يافعة جداً. من هي؟»

ردّ خافيير بنبرة ملؤها التسلية: «لوسيتا فاسكيز. والدها ميغيل كان الصديق الأقرب إلى جدي. كان في الستين من عمره حين وُلِدَت، وأخشى أنه دللها إلى حد كبير لا يمكن العودة عنه. أمل كارلوس أن أتزوج منها، فندمج بين عائلتينا العاملتين في مجال الصيرفة».

ردت غرايس بنبرة لاذعة: «لماذا لم تفعل ذلك إذاً؟ فحتى الأعمى يستطيع أن يلاحظ أنها يائسة من فرط حبها لك».

لم ينكر خافيير تصريح غرايس، لكن ابتسامته تلاشت حين قال: «لوسيتا مغرمة بي بسبب وهم طفولي، لكنها قريباً سوف تكتشف أنني لست أميرها الساحر الذي تحلم به. فهي تطلب أكثر مما أنا مستعد لتقديمه لأية امرأة».

أدركت غرايس أنه يقصد الحب، فتساءلت لما تراها شعرت فجأة بفراغ كبير في داخلها. حسناً! على العكس من لوسيتا، هي ليست واقعة تحت تأثير أية أوهام بخصوص علاقتها مع الدوق دو هيريرا. إن زواجهما هو بمثابة عقد ينال منه كل منهما ما يريده. هي تريد حرية والدها، وخافيير يريد السيطرة على مصرف هيريرا. من الغباء أن تتمنى أن يبتسم لها بنفس الدفء الذي أبداه للوسيتا. وهي مصممة على جعله يفهم بأن واجباتها كزوجة تنتهي خارج باب غرفة النوم.

قالت غرايس: «ألا تشعر بالوحدة في برجك العاجي؟ كل شخص بحاجة إلى الحب بشكل من الأشكال... حتى أنت».

حدّق خافيير نزولاً نحو غرايس مشككاً لبضع لحظات، ثم قال: «بحسب خبرتي وتجاربي، قلّما يُمنح الحب مجاناً من دون مقابل ومن دون شروط. فالحب يُضعف ويُدمر، وأنا لا حاجة لي به».

طافت عيناه فوق فستان غرايس الحريري الأبيض، فالتوى فمه بابتسامة ساخرة، ثم قال: «لعل رومنسية هذا الموقف أغوتك عزيزتي، لكن لا تنتظري

أشياء لا يمكن أن تحدث مطلقاً. إن الاحساس الوحيد الذي يجري بيننا هو الجاذبية الحسية. بكل بساطة، إن الكيمياء المتبادلة بيننا هي التي تحول لون عينيك إلى لون سماء الليل، وتجعلك ترتعشين حين أعانقك».

ردّت غرايس بكلمات لاذعة، متعلقة بغضبها حتى تخفي ردة فعل جسدها الخائن لدى سماعها كلماته، فقالت: «أنت حقاً تظن بأنك هبة من الله، أليس كذلك؟»

إدراك خافيير للتأثير الذي يتركه عليها أمر مهين جداً لها. الطريقة التي نظر بها إليها الآن بالذات، جعلتها تشعر بوخز من التوق يسري في جسدها. طمأنت نفسها بأن الأمر لا يعدو كونه انجذاباً حسياً، لكنها ترفض الاستسلام للإغواء. غمغمت وهي تقفز ناهضة على قدميها: «أنا بحاجة لاستنشاق الهواء».

أضافت مرتعبة حين حاول خافيير اللحاق بها: «أظن أن نسيبك يرغب بالتحدث إليك، من الأجدر أن تذهب لترى ما يريده».

عبرت غرايس من خلال حشد من الضيوف، فخرجت من قاعة الاحتفالات وهربت صعوداً على الدرج، هرعت بسرعة على طول مدخل الدرج، ثم توقفت فجأة حين وقعت عيناها على السرير المجرّد من الأغطية. أطلقت صرخة خافتة ثم عبرت الغرفة وفتحت باب خزانة الملابس فوجدتها خالية. أحست بحركة خفيفة في المدخل، فاستدارت حول نفسها، ثم سألت الخادمة بإلحاح: «كونسويلا، أين هي أغراضي؟»

أجابت الفتاة الإسبانية مبتسمة: «في غرفة النوم الرئيسية. طلب مني الدوق أن أنقلها إلى هناك».

قاومت غرايس الشعور بالغثيان الذي أحست به في معدتها، وهرعت عبر الرواق نحو غرفة خافيير، ثم دفعت الباب لتفتحه.

هيمن السرير الرائع ذو الأعمدة الأربعة على الغرفة، في حين أن الستائر ذات اللونين الأرجواني والذهبي قد شُدت إلى الخلف. فكرت غرايس أنها تفضل القفز في حفرة مليئة بالأفاعي، خصوصاً عندما وقع نظرها على رداء

النوم الخاص بها الموضوع على اللحاف.

كانت غرايس قد تلقت خلال الأسابيع القليلة المنصرمة عدداً لا يحصى من الملابس والأحذية وأدوات الزينة التي اعتبرها خافيير ضرورية لأجل لعب دورها كدوقة. احمرت وجنتاها بشدة فيما راقبت كونسويلا وهي تفرغ حقائب الملابس. افترضت أن كونسويلا هي من اختارت ذاك القميص الحريري الزهري وهي تفكر بالإغواء في ذهنها، فهو ذو صدر مخرم ناعم، كما أنه شفاف. الفكرة الوحيدة التي سيطرت على ذهن غرايس هي الفرار.

سألتها كونسويلا: «هل أساعدك في نزع التاج؟ إنه جميل جداً، لكن لابد أنه ثقيل».

ردّت غرايس موافقة بحزن: «كما أنه لا يقدّر بثمن. خشيت أن أوقعه».

حاولت إخفاء نفاد صبرها فيما قامت كونسويلا بإزالة مشابك الشعر من شعرها المرفوع، بحيث سقط شعرها منسدلاً في شلال من اللون البني الحريري الباهت.

فتمتت الخادمة لغرايس قائلة: «يقول توريس إن كل عرائس آل هيريرا ارتدين هذا التاج. يقال إنه يجلب لهن السعادة و...»

قطعت كونسويلا كلامها مطلقة قهقهة خجولة، ثم تابعت: «... والعديد من الأطفال».

تنهدت، وتمنت أن تذهب كونسويلا وتتركها وحدها، فخافيير لن يمضي طيلة الليل متربصاً مع ضيوفه، وهي مصممة على إيجاد أحد قمصان نومها القديمة، والعودة إلى غرفة نومها القديمة، قبل أن يأتي إلى الطابق العلوي مطالباً بحقوقه الزوجية. بدت الفكرة كافية لجعل غرايس تشعر بالوهن. شهقت حين سمعت صوته العميق من مدخل الباب، وهو يقول: «شكراً كونسويلا. يمكنك أن تدعينا بمفردنا الآن».

خاطب خافيير الخادمة، لكن نظرات عينيه تركزت على غرايس فيما ابتلعت هذه الأخيرة ريقها تحت تأثير الحرارة الخانقة النابعة من نظراته إليها.

فكرت بتهور أنه فات الأوان للهروب الآن، فيما بدت عيناها كبيرتين في وجهها الباهت اللون.

غمغمت قائلة: «لم أتوقع منك أن تترك ضيوفك وتتبعني إلى هنا».

- لقد تركتهم لحالهم.

أجاب خافيير بإيجاز، فيما أغلق الباب خلف كونسويلا وأقفله قبل أن يضع المفتاح في جيبه. ثم أضاف، وقد أخطأ تفسير شهقة الرعب الصادرة عنها: «لا تقلقي، توريس سوف يحرص على ألا يزعجنا أحد. سوف نستمتع بالخلوة التامة لبقية الليل، عزيزتي».

- ماذا بشأن خصوصيتي أنا؟

طالبته غرايس بصوت أبح، وقد تراجعت خطوة إلى الوراء فيما تمشّى خافيير نحوها. ذكّرتها مشيته بالنمر المرقط، فهو رشيق الحركة غامض وخطير جداً. أقرّت لنفسها بكآبة أنها ليست خائفة منه فعلاً، بل هي خائفة من نفسها ومن ردّة فعلها تجاهه. أعلنت بصراحة واهنة: «أريد أن أنام في غرفتي الخاصة. أنا مرهقة... ورأسي يؤلمني».

- أيتها الصغيرة المسكينة!

دنا خافيير منها إلى أن وجدت غرايس نفسها ملتصقة بأدراج الملابس التي تعلوها مرآة.

كان أحدهم قد وضع الورود الزهرية الباهتة اللون التي كانت تحملها كباقة خاصة بالعرس في زهرية، لذلك ملأ عبيرها المميز أجواء الغرفة. راقبته غرايس بضعف وهو يختار أحد البراعم وقد بدأ يتفتح للتو ليداعب به خدها برفق. أخيراً تمتم قائلاً: «هل أحببت ورودك اليوم؟»

همست قائلة: «إنها جميلة، فالورود هي أزهاري المفضلة».

- أعلم ذلك.

ابتسامة خافيير البطيئة أطلعتها على أنه يفكر بأول لقاء بينهما، حين سرقت غرايس وردة من حديقة قصره. قال لها مخفياً أسفه: «إنها تذكرني بك، فهي رقيقة، جميلة وبديعة التكوين، لكنها تحمل أشواكاً قد تسبب أذى

حقيقياً».

لسبب ما انجذبت عينا غرايس نحو يده، وكانت قد لاحظت الضمادة الصغيرة حول يده قبل قليل. عبست لدى رؤية لطخة الدم الواضحة على القماش: «ما الذي جرى ليدك؟»

- لا شيء مهم.

هزّ خافيير كتفيه ومسّد شعرها بأنامله. فكرت غرايس مرتعبة أنه يجدر بها أن تتحرك من مكانها، لكن بدا لها كما لو أن قدميها ملتحمتان بالأرض. وحين أمسك خافيير بذقنها فرفع وجهها لتواجهه، لم تقوَ على منع نفسها من الاقتراب منه. عانقها ببطء خدَّر أحاسيسها وفكك حواجزها بسهولة مرعبة. كيف يمكنها مقاومته، فيما قلبها يتخبط في صدرها بقوة إلى حد جعلها بالكاد تستطيع التنفس؟ تساءلت، أتراها ترتكب خطأ كبيراً إذا استسلمت إلى المشاعر الهادرة التي تجول في عروقها؟ إنه زوجها بالفعل، لكن زواجهما مجرد خدعة، كما أنها لا تحبه. خطّت أصابع خافيير درباً نزولاً على عنقها، ثم استقرت على النبض الذي يدق بجنون. شعرت غرايس بأحاسيسها تلتهب إلى درجة لا تحتمل. شهقت حين ضمها إليه في عناق حارق كشف عن نفاد صبره وتوقه لأن يأخذها إلى سريره.

- خافيير... لا!

استشعرت غرايس أنامله تتحرك على عمودها الفقري، وهي تفك الأزرار اللؤلؤية الصغيرة التي تحكم إغلاق فستانها. حينها وجدت في مكان ما القوة لتدفع بنفسها بعيداً عن صدره، فقالت: «لقد عنيت ما قلته. لن أنام معك».

سحبت الهواء إلى داخل رئتيها بقوة وحدّقت به بجموح قائلة: «لا أريدك».

- لا تكوني سخيفة.

ابتسامته الساخرة وغروره جعلا غرايس تكزّ أسنانها، أما هو فتابع قائلاً: «أنا لست أعمى عزيزتي، فلدي دلائل حسية على أنني أعجبك بقوة.

أنت تشعرين بالشوق تجاهي تماماً كما أشعر أنا. فما الهدف من نكران الشغف الذي يتوق له جسدك بكل وضوح؟»

ردّت غرايس بكلام حاد جداً جعل عيني خافيير تضيقان: «لربما يتفاعل جسدي مع خبرتك، لكن قلبي وعقلي يرفضانك، وهما الأهم بالنسبة إلي».

- لكنك زوجتي.

وقبل أن يتسنّى لغرايس الوقت لتفكر، أدارها خافيير حول نفسها وتابع فك أزرار فستانها.

- لا!

أطلقت غرايس صرخة حادة وأمسكت بفستانها ليبقى ملاصقاً لصدرها، ثم قالت: «فستاني الجميل... لقد خرّبته».

تابعت قائلة: «أنت... بربري همجي! لا عجب أنني لا أتحمل وجودك بالقرب مني».

تصلب فك خافيير، لكن حين تكلم بدا صوته هادئاً، إذ قال: «ما القضية الحقيقية هنا، غرايس؟ هل قررت أن تقبضي ثمن انجذابي إليك؟ دفعت مسبقاً ثروة من الأموال لأجلك، لكن ذلك المبلغ ذهب لأجل تصفية ديون والدك. هل ترغبين الآن بحافز مالي إضافي مقابل مشاركتي سريري؟».

في اللحظة التالية سُمع دوي الصفعة التي تلقاها خافيير على خده، والتي تردد صداها في أرجاء الغرفة كالقذيفة. تبع ذلك لحظة من الصمت، ثم صرخت غرايس حين رفع خافيير يديه فمزق الفستان عن كتفيها.

- خافيير... لا... لن أفعل هذا.

لكنه اختطفها وأخذها بين ذراعيه، فبدأت تضربه بقبضتيها. أحست أن الأنفاس تفارق جسدها حين أسقطها على السرير وأسرها بجسده الصلب. فيما قال لها: «انتهى وقت الألاعيب، عزيزتي».

ارتعدت وهي تشعر بكرب وألم شديدين من الرفض الممتزج بالشوق الصادق، لاسيما حين أخفض خافيير رأسه ودفنه في عنقها متنشقاً رائحة عطرها. شعرت غرايس أن الاحساس بأنفاسه فوق بشرتها هو عذاب رائع،

لكنها راحت تحرك جسمها مقاومة من دون هوادة. غمرتها تلك الأحاسيس الجديدة الغريبة التي أثارها خافيير في داخلها، فلم تتمكن من كبت تنهيدة ارتياح حين رفع خافيير رأسه. راحت غرايس تتنفس بصعوبة، فحدقت إلى الأعلى نحوه بعينين مغشيتين، فيما تدحرج ليقف إلى جانب السرير.

قال لها بقسوة: «تعهدت في الكنيسة بأن تكوني زوجتي، والآن حان الوقت لتحترمي هذا الوعد».

- وما الذي تعرفه أنت عن الاحترام؟

خلع خافيير برشاقة قميصه فتألقت بشرته تحت ضوء الغرفة كالنحاس.

- آه، يا إلهي!

قفزت غرايس بهلع صرف، إلى أن أصبحت تضغط بنفسها على خشبة السرير العلوية، فقالت: «خافيير، لا يمكنني أن أفعل هذا. أرجوك لا تجبرني».

بدت عيناها ككرتين محترقتين في وجهها الباهت اللون، فيما تشدّق خافيير قائلاً لها: «بدأ الأمر يصبح مملاً بعض الشيء، عزيزتي. لماذا تصرين على أن تتصرفي كالعذراء المرتعبة؟»

همست غرايس بإلحاح: «لأنني فعلاً عذراء مرتعبة».

- بالطبع أنت كذلك.

شهقت غرايس حين قبض على قدميها فجرها نزولاً إلى السرير، ثم زمجر بوحشية قائلاً لها: «على الأقل تحلّي بلياقة النظر إلي مباشرة حين تحبكين أكاذيبك».

لكنه شعر بالتوتر حين رفعت غرايس أهدابها، فرأى التعابير البادية في نظراتها الخائفة. لم يقل شيئاً للحظات طويلة مؤلمة، فأكدت له بتسرع قائلة: «أقسم... أنا أبداً لم أقم علاقة مع أي رجل».

زمجر خافيير بحدّة وغضب: «لكنك كنت مخطوبة إلى رجل يتمتع بسمعة في أرجاء لندن أنه متعدد العشيقات».

أخبرته غرايس بتصلب، فيما تحولت وجنتاها إلى اللون القرمزي: «لم

أكن أعرف شيئاً عن سمعة ريتشارد حين تعرفت إليه. ظننته ساحراً ونبيلاً حقيقياً لأنه لم يحاول أخذي إلى سريره».

لاحظ التعاسة في عينيها، فقال لها مخمناً: «لكنك عرفت الحقيقة في نهاية الأمر. ما الذي حصل؟»

ابتلعت غرايس ريقها. أما خافيير فاستلقى على أحد وركيه منحنياً فوقها قليلاً، لكنه لم يبدِ أية محاولة للمسها فيما انتظر جوابها. أقرت بصوت أبح: «تعارفنا بعد انتقالي للسكن في لندن، فوقعت في حبه إلى حد كبير. حدث ذلك بعد وقت قصير من وفاة والدتي. كنت في حالة من الاحباط واليأس، وأفترض أنني كنت أشعر بالوحدة. ريتشارد جعلني أضحك بعد أن مضى وقت طويل على آخر مرة ضحكت فيها. أحسست أنني أكاد أطير فرحاً حين طلب مني الزواج به. اعتقدت أن عدم إصراره على إقامة علاقة معي حتى موعد زفافنا هو أمر يبرهن حقيقة حبه لي».

تنهدت غرايس بثقل فيما تذكرت تلك الفترة من حياتها التي تفضل فعلاً لو تنساها، ثم تابعت: «قبل الزفاف بأسابيع قليلة قصدت شقته في زيارة مفاجئة، وكنت أنوي إخباره أنني أحبه كثيراً، وأننا سوف نمضي بقية حياتنا سوياً. لكن المفاجأة وقعت علي أنا».

تابعت غرايس بمرارة: «كنت أملك مفتاحاً خاصاً بي لشقته، فدخلت... حتى أجده في السرير مع مدبرة منزله».

استفسر خافيير قائلاً: «وبالتالي، أنت فسختِ الخطوبة؟»

- بالطبع. أنا أؤمن بأن الزواج يجب أن يكون ارتباطاً لمدى العمر، كما كان زواج والديّ».

فكرت بالعهود التي تعهدت بها لخافيير في وقت سابق من هذا النهار، فعضّت على شفتها وقالت: «ظننت أن الحب الذي أتشاطر به مع ريتشارد سوف يدوم إلى الأبد، لكنه كان مزيفاً تماماً كما هو زواجنا الآن. ريتشارد رغب بالزواج مني فقط لأن افتتاني به زاد من غروره وأرضاه. كنت مغرمة بشدة به إلى درجة الغباء. حتى إنني لم أشك أبداً بالمرات العديدة التي أُجبر

فيها على العمل لوقت متأخر، أو حين كان يختفي فجأة لعدة أيام من أجل حضور مؤتمرات متعلقة بالعمل».

استنشقت غرايس نفساً عميقاً وحدقت بخافيير، وقد ظهر قلبها في عينيها، فقالت: «بالرغم من كل الألم الذي سببه لي ريتشارد ما زلت أؤمن بالحب... ذاك النوع العميق من الحب الصامد الذي أحسّه والداي تجاه بعضهما. يوماً ما آمل أن ألتقي بالرجل الذي سوف أحبه إلى الأبد، والذي سيبادلني هذا الحب، وهذا هو الرجل الذي سوف أكرّمه بشرف الحصول على جسدي».

حدّق خافيير بغرايس، فيما التمعت عيناه الكهرمانيتان بالاحباط وقال: «يا إلهي!»

فجأة سحب ثيابه وارتداها، ثم قال: «يا لحظي السيء! يبدو أنني ارتبطت بزوجة تتمتع بلسان لاذع كالأفعى، وبوجه جميل كحورية البحر، فيما تبدو براءتها مشابهة لبراءة إحدى عذارى فيستا».

قذف خافيير قميص النوم الزهري اللون باتجاه غرايس، ومزاجه يغلي على مهل، ثم قال: «من الأفضل أن ترتدي هذا قبل أن أعود».

غمغمت غرايس فيما ألصقت الثوب الفضفاض إلى صدرها: «إلى أين أنت ذاهب؟»

- لآخذ حماماً مطولاً بارداً.

قالت غرايس بسرعة: «سوف أنام في غرفتي القديمة لو فتحت لي قفل باب غرفة نومك».

ردّ خافيير بنبرة لاذعة آمرة متسلطة قائلاً: «هذه هي غرفة نومنا. من الآن فصاعداً سوف ننام كلانا فيها. أخبرتك أنني لا أريد أن يشكّ أي شخص بأن زواجنا ليس ارتباط حب وغرام، حتى الموظفين العاملين لدي».

- لكن لا يمكنني البقاء هنا. لن أغفو أبداً.

- حسناً! أقترح عليك أن تحاولي ذلك جاهدة عزيزتي، لأنني لا أستطيع

أن أعدك بأنني سوف أعفيك من حاجاتي البدائية التي تعتبرينها مهينة جداً إن كنت ما تزالين مستيقظة حين أصعد إلى جانبك في السرير.

مشى خافيير داخلاً إلى الحمام، فصفق الباب بقوة جعلت مفصلاته تئن.

www.elromancia.com

٨ ـ لست أكرهك

تحركت غرايس الناعسة، وانقلبت من جنب إلى آخر في السرير. لكن جفنيها انفتحا بسرعة حين أسرها صوت مألوف فأيقظها تماماً.

حيّاها خافيير بصرامة قائلاً: «أخيراً استيقظتِ! لم أعرف أبداً امرأة تنام بعمق مماثل».

قالت له غرايس برقة: «ذلك لأنني أتمتع بضمير صافٍ».

أحست بنبضات قلبها تتسارع حين تشرّبت مظهره النحيل الغامض البالغ الجاذبية، بسرواله الجينز الأسود، والكنزة الصوفية.

- هل أستنتج أنك لم تتمتع بليلة مريحة؟

ردّ خافيير فيما هي تمشي نحو السرير: «صحيح. لكن السبب ليس ضميري، ولا افتقاره إلى الصفاء. ما منعني من النوم عزيزتي، هو جسدك الملتف حولي بإغواء شديد، وهو أمر أطلق العنان لمخيلتي».

اعترضت غرايس، وهي غير قادرة على ملاقاة نظرته الساخرة: «أنا لم ألتف على جسدك».

بعد أن صرّح لها خافيير بذلك لن يغمض لها جفن بعد الآن. إنها لا تتذكر أي شيء عن الليلة المنصرمة باستثناء شعورها بالدفء والاسترخاء والأمان. أتراها حقاً أمضت الليلة وهي منضمة إلى دفء جسده؟ نظرت إليه بحذر، وقد ثارت شكوكها بسبب تعابير وجهه المهذّبة اللطيفة، فقالت: «هل أتأمل الكثير باعتقادي أنك تصرفت كرجل نبيل؟».

طمأنها خافيير بابتسامة: «تصرفت بشكل معصوم عن الخطأ. ثقي بي».

وقبل أن تتمكن غرايس من الحراك، انحنى خافيير فوقها فأسرها في عناق

سريع. تحول خداها إلى لون زهري عندما استقام فنظر نزولاً نحوها، وقال لها: «حين نقيم علاقة سوف تكونين مستيقظة ومدركة تماماً لما يحصل، وسوف تستمتعين بذلك، عزيزتي».

أجبرت غرايس رئتيها على استنشاق الهواء، وأبعدت نظراتها بالقوة عن خافيير، فيما ارتعشت أناملها قليلاً. بدا من المستحيل أن تسيطر على الارتعاش الذي يصيبها بسبب قربه منها، خصوصاً حين يتفوه بكلمات مماثلة. ردت بنبرة لاذعة: «ألم تصغِ إلى كلمة واحدة مما قلته لك ليلة الأمس؟ أنا لن أقيم علاقة مع رجل لا أحبه».

أطلق خافيير ضحكة مكتومة وتحرك نحو الباب قائلاً: «إذاً سوف يكون علي بكل بساطة أن أوقعك بحبي. أليس كذلك؟»

طمأنت غرايس نفسها قائلة إنه بالطبع لن يتمكن من فعل ذلك، ذلك أمر مستحيل! ردت عليه: «ظننتك لا تؤمن بالحب».

أخبرها خافيير بغروره المعتاد: «أنا كذلك، لكنني أؤمن بالجاذبية المتبادلة. لأكون صريحاً معك، أنا لا آبه للاسم الذي تطلقينه على هذه الكيمياء الموجودة بيننا، لكن كلينا نعلم جيداً كم تحرقنا بشدة. أما الآن فقد حان وقت استيقاظك. كونسويلا سوف تأتي إلى هنا خلال دقائق حاملة لك الفطور، بعدئذٍ يجدر بنا اللحاق بالطائرة».

- لماذا...؟ إلى أين نحن ذاهبان؟

- سوف نقضي بضعة أسابيع في جزر السيشيل.

فتح خافيير الباب، وكان على وشك أن يخطو خارجاً حين تكلمت غرايس. سألته بارتباك: «أتقصد أن لديك أعمالاً هناك؟»

أجابها وقد ظهر توهج ماكر في عينيه: «لا! إنها رحلة استجمام ومتعة فقط».

وقبل أن تتمكن من طرح المزيد من الأسئلة وصلت كونسويلا حاملة فطورها، فاختفى خافيير.

تكلمت الخادمة الشابة وهي تبتسم ابتسامة عريضة، فيما وضعت الصينية

على حضن غرايس، فقالت: «لا بد أنك متحمسة جداً. شهر عسل في جزر السيشيل أمر رومنسي جداً. إن الدوق يتمتع بوجه متصلب لكن قلبه دافئ... أعتقد ذلك».

تابعت كونسويلا كلامها فيما جمعت البتلات القليلة التي سقطت على خزانة الأدراج ذات المرآة، فقالت مبتسمة لغرايس: «من المؤسف أن ورودك سوف تذوي قبل عودتك. صمم السينيور هيريرا على قطفها لك بنفسه من حدائق القصر، لكن الأشواك جرحت يديه فأدمتهما. هل هنالك أي شيء آخر تحتاجينه، سنيوريتا؟»

فكرت غرايس صامتة أنها فقط بحاجة إلى مفتاح يدخلها إلى ذهن الدوق دو هيريرا. هزت رأسها وحدقت نزولاً نحو الفطور، فاكتشفت فجأة أن شهيتها قد فارقتها. من هو هذا الرجل الذي تزوجته؟ اعتقدت أنه بارد القلب عديم الرحمة، لكنه تكبد العناء ليقطف لها أزهارها المفضلة لأجل باقة العرس، والآن سوف يخطفها بسرعة البرق إلى أحد أكثر الأماكن رومنسية في العالم لقضاء شهر عسلهما. لكنها تذكرت أن خافيير سوف يكون نافد الصبر لأن يستلم موقعه في رئاسة مصرف هيريرا، وذلك هو السبب الوحيد لزواجه منها.

مرت خمسة أيام، وما زالت غرايس لا تملك مفهوماً واضحاً للأشياء التي تؤثر على زوجها. فمنذ وصولهما إلى الفيلا الفخمة الواقعة على الشاطئ في جزر السيشيل، راح خافيير يتصرف بلياقة واهتمام لا تشوبهما شائبة. بدا ساحراً جداً معها، إلى درجة أنها بالكاد استطاعت أن تصدق أنه الرجل نفسه الذي أطلق كلبه في أعقابها حين قبض عليها تتطفل على أراضي قصره. أي لعبة تراه يلعب معها؟ لأنها حتماً لعبة ما، أما الذنب فيقع عليها وحدها لكونها تنزلق أكثر فأكثر لتغوص في تأثير سحره.

أمضيا أيامهما يسبحان في بركة السباحة الخاصة بالفيلا أو في البحر الأزرق الغامق الصافي. تمشيا على الشاطئ وهما يتحدثان عن كل موضوع محتمل، باستثناء والدها وأسباب زواجهما. تناقشا بشأن الأفلام السينمائية

والفنون، وقام خافيير بإطلاعها على تفاصيل مدهشة بخصوص الكنوز المراكشية الموجودة في قصره. كما قال لها إن بإمكانها الاطلاع على القوائم المدونة يدوياً حين يعودان إلى غرناطة. لكن غرايس لم تتمكن من اكتشاف حقيقة خافيير هيريرا أو الأسرار التي يبقيها مغلقة في قلبه. لم يتحدث عن طفولته مجدداً، لكنها افترضت أنه يشعر بالوحدة.

بعد ظهر أحد الأيام، أمضت غرايس بضع ساعات بمفردها، فيما ذهب خافيير للتزلج على المياه. فكرت أن من الأفضل أن يبقي على بعض الحواجز بينهما، فهي لا ترغب في أن تعجب به. يكفي أنه يجعلها تشعر كما لو أنها فتاة صغيرة طائشة حين يبتسم لها، وحين يعانقها...

أطلقت أنيناً ينم عن اليأس، فيما تملّصت من فستانها الصيفي، فتركته على الرمال قبل أن تهرول مسرعة نحو البحر. بدت لها المياه باردة على بشرتها الحامية، فسبحت إلى أن آلمتها ذراعاها عليها ترتاح من التوتر. قالت لنفسها بحزم إنها لا تعاني من الاحباط، لكن جسدها بدا غير مقتنع بذلك. لطالما افترضت أنها إحدى أولئك النساء اللواتي لا يتمتعن بقابلية لإقامة العلاقات، لكنها شعرت بالمرارة لاكتشافها أن مجرد نظرة واحدة من عيني خافيير كافية لإشعال لهيب أحاسيسها.

- لا يحق لك أن تستمر بـ... التصرف بقسوة معي.

كانت غرايس قد قالت ذلك لخافيير خلال أول يوم من وصولهما إلى الفيلا، بعد أن جذبها إلى حضنه فعانقها بمهارة بالغة جعلتها تفقد أنفاسها. تابعت: «أنت بنفسك قلت إن زواجنا هو مجرد عقد عمل، ولست أرى أي بند فيه يذكر أنه يفترض بي أن أشاركك سريرك».

- لكن من الممتع جداً أن نكسر القوانين، ألا تظنين ذلك عزيزتي؟

رد خافيير بإحدى ابتساماته المدمرة، التي جعلت غرايس تتوق لأن تتخلى عن العقلانية فتتبع ما يمليه عليها جسدها. منذ ذلك الحين راح خافيير يعانقها أينما شاء وساعة شاء. فكرت بأسى أن ذلك يحصل كثيراً، وهي غير قادرة على مقاومته حين يضمها إليه بشغف لا يحاول أبداً إخفاءه. انقلبت غرايس

على ظهرها فطافت فوق سطح الماء. ذاك الجمال المحيط بها أشعرها بالهدوء. اقتربت بعدئذٍ من المياه الضحلة، وتمشت على طول الشاطىء، فيما توقفت من حين إلى آخر حتى تلتقط صدفة عن الأرض. بعدئذٍ فقدت شعورها بالوقت... كانت مستغرقة بالتفكير حين لفحتها نسمة هواء باردة. نظرت حولها، وأدركت حلول الغسق.

* * *

- غرايس!

حدّق خافيير على طول الشاطئ الخالي فنادى باسم غرايس مجدداً، على الرغم من معرفته بأنها لن تجيب. أين تراها تكون؟ كان فستانها والقبعة الواقية من الشمس ما يزالان على الرمال، في حين أكد أحد موظفي الفيلا أنه رأى السنيورة دو هيريرا متجهة نحو البحر منذ بضع ساعات.

بحث عنها خافيير في كل مكان، أما الآن وبعد أن حلّ الظلام، فقبض عليه شعور من الخوف. لا يمكن أن تكون قد غرقت. قال خافيير ذلك لنفسه بحزم، فيما بدأ يخطو على طول الشاطئ مرة ثانية، متتبعاً الدرب الذي كان قد مشاه مرتين من قبل. لم تكن مصلحة الأرصاد الجوية قد أعلنت أن التيارات المحيطة بالجزيرة هي خطيرة، أما إذا واجهت أية صعوبات خلال السباحة، فلا بد أن يراها أحدهم ويذهب لنجدتها. لكن غرايس صغيرة الحجم وتعتمد على نفسها إلى حد كبير، لذا من المحتمل أن تغرق ببساطة من دون أي أثر. حث خافيير خطاه فنادى باسمها مراراً إلى أن بُح صوته. قال لنفسه بحدة إنه ما كان يجدر به أن يتركها وحدها أبداً.

إنه في الواقع لم يتغيب سوى لبضع ساعات. بدت منشآت الرياضات المائية ممتازة جداً، لكنه شعر بالملل من دون وجود غرايس. بالرغم من ذلك انزعج لإقراره بأنه يكاد لا يطيق صبراً حتى يعود إليها. يبدو أنها أثرت به فعلاً لسبب لا يمكن تفسيره. إنها امرأة ذكية ورفقتها ممتعة. يمكنه أن يتكلم معها لساعات وليس فقط لخمس دقائق، كما اعتاد أن يفعل مع غيرها من النساء. إدراكه القوي للجاذبية المتبادلة بينهما كاد يخنقه من الداخل. أحياناً

حين يجذبها بين ذراعيه ليعانقها تهدد أحاسيسه بالانفجار والاشتعال. لكنه كان نوعاً ما يستمتع بتراكم الشغف ببطء في كيانه، بدا انتظاره لقضاء أوقات حميمة مع غرايس مقدمة معذّبة تزداد غنى يوماً بعد يوم. بغض النظر عن محاولاتها الكثيرة لنكران الأمر، إلا أنها تبادله هذه الأحاسيس. أما الآن فغرايس اختفت، وحتى الآن لم يتمكن الفريق الذي استخدمه لمساعدته من إيجادها. سيطر خافيير على هلعه بقوة إرادة حديدية. أجال بصره على امتداد الشاطئ المغطى بالظلام، فاستطاع أن يلمح شكل شخص صغير القامة يسير باتجاهه. لاحظ بحدة وغضب أنها غرايس، وهي تسير كما لو أنه ليس هنالك ما يشغل بالها أبداً في هذه الدنيا. بدأ قلبه يخفق في صدره، فبدأ يركض نحوها.

- أين كنت بحق الجحيم؟ معظم سكان الجزيرة يبحثون عنك.

قال خافيير ذلك بوحشية عندما وصل إلى غرايس محدقاً نحو وجهها المستدير. يا إلهي، كم هي لطيفة! أراد أن يجذبها ويضمها بين ذراعيه ليمسكها بأمان، ثم يهزّها حتى تصطك أسنانها!

غمغمت غرايس وقد استمتعت بغضبه الذي يغلي على مهل: «أنا آسفة، لم أدرك أن الوقت تأخر. لِمَ هذه العجلة؟»

ردها البريء فجّر غضبه، فأطلق شتيمة، ثم رفعها بين ذراعيه وبدأ يسير على طول الشاطئ.

- تغيبتِ لأكثر من أربع ساعات. لم تضعي قبعتك، مع أنك غادرت الفيلا خلال أكثر ساعات النهار حرارة، ولا أفترض أنك أخذت معك المرطب الواقي من أشعة الشمس، لذا فإن أقل ما تستحقينه هو أن تتلقي ضربة شمس.

قال لها ذلك بعبوس وتجهم، فيما أطلعتها نبرته بأنه يهيىء لها عقاباً أكثر ملاءمة للوضع.

وصلا إلى الفيلا، فرحب بهما مدير الملكية الذي عبّر عن ارتياحه لكون غرايس سليمة معافاة. شكر خافيير الرجل وبقية الموظفين، فيما كادت

غرايس تموت من شدة خجلها لأنها أحدثت هذه الجلبة. حالما أصبحا بمفردهما، حاولت أن تقاوم لتخرج من بين ذراعيه، لكن خافيير تجاهلها فحملها إلى غرفة النوم الرئيسية، حيث أسقطها من دون مقدمات ومن دون لباقة على السرير.

قالت له عابسة مستهجنة: «يمكنني الاهتمام بنفسي، أتعلم؟»

ردّ خافيير وقد تصلب فكه لدى تذكره الساعات التي أمضاها باحثاً عنها: «خشيتُ أن تكوني قد غرقت، فأنت تركت ملابسك على الرمال، وشوهدتِ متوجهة نحو البحر».

هز كتفيه، وقد تلطخت وجنتاه بلون خفيف، فتابع: «أدرك أن زواجنا لا يشعرك بالسعادة».

قالت غرايس بوقاحة: «لعله قدر أسوأ من الموت، لكن أطمئنك بأن لا نية لدي بإغراق نفسي».

لاحظت غرايس في عيني خافيير لمحة غضب أو ما شابه، إنه شيء غير محدد... ربما إحساس ما، فأدركت متأخرة أنه فعلاً خشي على سلامتها. قالت متلعثمة: «أنا آسفة... ذلك قول سخيف».

أما عيناها فاتسعتا عندما انحنى فأسرها بعناقه. غمغم خافيير بصوت حريري: «إذاً... الزواج مني هو قدر أسوأ من الموت. أليس كذلك؟ دعينا نرى... هلّا فعلنا؟»

- خافيير... لا! أنا لم أقصد أن...

ضاعت بقية كلمات غرايس، فيما انقض عليها بعناق شغوف يهدف إلى إيقاع العقاب بها. حركت رأسها بارتعاب، إلى أن شبك خافيير أصابعه في شعرها فأمسكها بإحكام، بينما شدها بالقوة إليه. بدا قاسياً ومسيطراً، فيما سحقها تحت جسده، ما جعل الحرارة تطوف في عروقها. ارتخى ضغط يديه للحظة، بينما أصبح عناقه اختباراً فاضحاً لأحاسيسها. لم تعد غرايس قادرة على مقاومة مهارته، فلفت ذراعيها حول عنقه وتعلقت به. طالبها خافيير بخشونة: «أخبريني بصراحة غرايس، هل تجدين لمساتي منفرة؟».

التمعت عيناه بوهج الشغف والكرامة المجروحة، وكادت غرايس تصدق فعلاً بأنها جرحته، فهزت رأسها ببطء من جانب إلى الآخر.

- أنا انتظر ردّك.

أجبرت نفسها على فتح عينيها وملاقاة نظراته لدى سماع صوته الخشن. كم رغبت بأن ترفضه فتمسح بذلك ابتسامة الغرور عن وجهه، لكن جسدها كانت له طريقته الخاصة في فضح أحاسيسها.

- أنا... لا... أكرهها.

قالت غرايس ذلك بصوت ثخين فرأت الوهج في عينيه، قبل أن يضمها إليه مجدداً مدمراً آخر الآثار المتبقية من كرامتها، ففكرت، أتراها ترتكب خطأً لو تخلت عن مبادئها فسلمت نفسها له؟ إنه زوجها على أي حال. كل لمسة من لمساته النابضة بالحياة جعلت أحاسيسها تتصاعد أعلى فأعلى إلى أن أحست كما لو أنها تتأرجح على حافة الوقوع إلى مكان سحري ما.

- خافيير...!

غمرتها الأحاسيس بقوة، بدا الأمر رائعاً جداً، لكنه خاطئ جداً. لا يجدر بها أن تفعل هذا... ليس مع رجل لا يكنّ لها أي احترام، ويعتبرها إحدى ممتلكاته لأنه اشتراها بماله.

غمغم خافيير بصوت حريري: «صه، اهدأي حبيبتي! كل شيء على ما يرام».

لفّ ذراعيه حولها، فأمسكها بالقرب منه. لكن غرايس دفعت صدره بيديها، فيما بدأت الدموع تنهمر نزولاً على وجهها.

- لا! ليس الأمر على ما يرام... لا يجدر بي أن أفعل هذا، فأنا لا أحبك.

قالت له ذلك بوحشية، وهي تهز رأسها بحدّة، ما جعل شعرها يتطاير إلى الأمام فيغطي وجهها. ثم همست منكسرة: «أنا لا أكره لمساتك... هذا واضح جداً... لكنني أكره نفسي».

ردّ خافيير مزمجراً: «لكننا متزوجان! إذا كنت ترفضين إقامة علاقة معي

وأنت زوجتي، ماذا بحق الجحيم كنت ستفعلين لو أنني عرضت عليك أن تصبحي عشيقتي مقابل مساعدة والدك؟»

ارتعشت غرايس وقالت بصدق: «أنا مستعدة لأفعل أي شيء حتى أنقذ والدي من السجن. لكنني أحتاج إلى تناول حبة دواء منوم أولاً، حتى لا أتذكر الكثير مما يحصل».

أطلق خافيير شتيمة بلغته الأم وابتعد عنها، ثم قال: «أنت مناسبة تماماً لغروري، عزيزتي».

مجدداً لاحظت غرايس لمحة ألم حقيقي ممتزجة بغضبه، فعضت على شفتها. أتراها جرحت كبرياءه؟ لسبب ما جعلتها تلك الفكرة ترغب بالبكاء، لذا قالت: «أنا آسفة، لكنك تعرف شعوري. بالنسبة إلي، الحب والعلاقة الزوجية مرتبطان بشكل لا يمكن الخروج منه، ويوماً ما آمل بأن أتعرف إلى شخص يقدّر قلبي تماماً كما جسدي».

سألها خافيير بسخرية: «أأنت مستعدة لأن تحرمي نفسك من العلاقة الزوجية التي تستحقينها ويتوق جسمك لها، فقط لأجل إيمان مضلل بقصة خرافية؟ حسناً! أنا أتمنى لك السعادة. لكن إن قررت يوماً أن تنضمي إلى العالم الحقيقي فاعلميني بذلك. مهما حاولت إنكار الأمر، فأنا الرجل الوحيد الذي يناسبك».

٩ - صدمة ومفاجأة

تسللت أشعة الشمس الفضية الباهتة عبر الستائر وانحرفت على الوسائد، ففتحت غرايس عينيها متنهدة بنعومة. منظر وجه خافيير القريب جداً من وجهها جعل قلبها يقفز من مكانه، تماماً كما يحصل كل صباح طيلة الشهرين الماضيين.

الشهران اللذان أمضتهما غرايس في قصر الأسد مرّا بسرعة. لكنها عوضاً عن أن تتمنى مرور الأشهر العشرة الباقية بالسرعة نفسها، وجدت نفسها تتمنى لو يقف الزمن في مكانه. ما الذي يفعله بها هذا الساحر الذي أوقعها تحت تأثير لعنته؟ حدّقت غرايس بخافيير ملاحظة كيف تحتك رموشه الطويلة السوداء بخديه. بدا خافيير خلال نومه أكثر استرخاء، بل يكاد يكون صبياني الملامح، فأحست بقلبها ينتفخ بالأحاسيس. عندما التقته لأول مرّة اعتقدت أنه أحد أفراد عصابة الشيطان، لكنها أدركت منذ الشهور الأولى لزواجهما أن الدوق دو هيريرا يمتلك قلباً بالفعل، لكنه ببساطة يبقيه مخفياً تحت قشرة ظاهرية من اللامبالاة الباردة.

رفعت جسمها لتستند على مرفقها حتى تدرس ملامح وجهه بوضوح أكبر. أقرت حينها أنه ليس بارداً تجاهها، فهو يمضي الكثير من الوقت برفقتها رغم انشغاله الدائم في مكتبه أو في مكاتب مصرف هيريرا في غرناطة. غالباً ما كان يأخذ استراحة فيطلب من غرايس أن تتمشى معه في أراضي القصر. أما خلال العشاء كل ليلة، فبدا خافيير رفيقاً محبباً يتمتع بخفة الدم، وراح يغازلها مداعباً بغير خجل. وهو أمر جعلها تتوق للموافقة على الدعوة الجريئة الواضحة البادية في عينيه.

لكن منذ الصدمة التي تلقاها أثناء شهر عسلهما لم يبذل خافيير أية محاولة أخرى لإقامة علاقة زوجية مع غرايس. كما أنه لم يعد يعانقها إلا أمام موظفي القصر، وافترضت أنه يفعل ذلك لتدعيم الاعتقاد لدى الآخرين بأن زواجهما حقيقي، وذلك أيضاً هو سبب إصراره على نومها في سريره. أما حالما يصبحان بمفردهما كل ليلة، فخافيير يحاذر تماماً أن يلمسها.

فكرت غرايس بائسة أنها لا تستطيع اتهامه بالتصرف الخاطئ. كان يصعد إلى السرير، فيغفو بعد لحظات من إطفاء الأضواء، في حين أنها تبقى صاحية معظم الليل، لأن رغبتها بالانزلاق بين ذراعيه تعذبها. الانجذاب الحسي، الحب... إنها مرتبكة جداً. ما عادت تعرف أين تنتهي الأولى فتبدأ الأخرى. حين وافقت غرايس على عرضه بالزواج عاهدت نفسها بألّا تقع في غرامه أبداً، أما الآن فهي لم تعد واثقة تماماً من ذلك. أقرت بكآبة أن أفكارها تأخذ منحى خطيراً، ثم انقلبت على ظهرها فحدقت إلى الأعلى. يوماً بعد يوم أخذ خافيير يجتاح قلبها، لكن لا مجال أبداً لأن يحبها هو بدوره. بعد مرور عشرة أشهر من الآن، سوف يطردها من حياته بالقسوة الفعالة، وعدم الرحمة اللتين يتميز بهما.

- صباح الخير عزيزتي. هل نمتِ جيداً؟

هل سبب هذه النبرة المغيضة نوعاً ما في صوت خافيير، هو إدراكه أنها أمضت ساعات وهي تتقلّب في السرير، فيما يعاني جسدها من الإحباط؟ فكرت غرايس بذلك عندما أدارت رأسها لتلاقي نظراته اللطيفة. أكدت غرايس له مبتهجة: «نمت كالميتة، فقد حظيت بليلة رائعة خالية من الإزعاج».

- أحقاً؟ ظننت أنك حلمت بكابوس ما، نظراً لكثرة تلوّيك في السرير.

- لم أكن أتلوى.

جلست غرايس باستقامة وحملقت بخافيير، فيما اشتعلت وجنتاها عندما لاحظت الوهج الماكر في عينيه. علق خافيير برقة: «لعلني كنت أحلم، إذاً. ليتني لم أستيقظ».

وضع ذراعه في وضعية الدفاع عن النفس عندما انتزعت غرايس وسادتها فضربته بها.

- حسناً! أنت ترغبين باللعب. أليس كذلك؟

ابتسم لها خافيير، وفاجأها حين أخذ الوسادة منها بيسر مهين، ثم قلبها على ظهرها ووهج الإغاظة ما زال يلتمع في عينيه، لكنه ما إن حدّق بها نزولاً حتى تلاشت تلك النظرة، قال: «تبدين جميلة جداً عزيزتي، وأنا تحليت بالصبر كثيراً بالبقاء على جهتي من السرير».

غمغمت غرايس بصوت أبح: «أنت لست على جهتك من السرير الآن».

أحست بردة فعل جسدها الفورية على احتكاك جسمه بها.

- وأنت كذلك. نحن لسنا في أرض أي شخص، حيث لم تعد تحتسب قوانين الحرب.

- أنا لست في حرب معك.

سقطت خصلة شعر على جبين خافيير، فأطلقت غرايس تنهيدة ضعيفة الحيلة، واستسلمت إلى رغبتها بتمسيدها إلى الخلف، بينما ارتعشت أناملها قليلاً وهي تمررهما من خلال الشعر الحريري الأسود الغزير. كم هو رائع ووسيم! إنها لا تستطيع أن تفكر بشكل صائب وهي على مقربة منه. يجدر بها أن تدفعه بعيداً عنها، لكنها عوضاً عن ذلك لفت يديها حول كتفيه. ثم همست بخجل: «ظننت أننا أصبحنا صديقين».

- صديقين؟!

أطلق ابتسامة نحوها جعلت الأنفاس تعلق في حلقها، وقال: «وشركاء في المنامة. بالرغم من أنه من المنصف أن أقول إن أياً منا لا ينام كثيراً. هل توافقين عزيزتي؟»

من غير المجدي أن تنكر ذلك، في حين أنها تكاد تذوب شوقاً إليه، فقالت: «نعم».

ابتلعت غرايس ريقها لدى رؤية الدفء اللامع في نظراته. راقبته وهو

يخفض رأسه ببطء ثم يطلق غمغمة خافتة قبل أن يعانقها.

- خافيير...!

دفنت غرايس وجهها في عنقه حين همست باسمه.

غمغم خافيير قائلاً: «أنت تتوقين إلي غرايس كما أتوق إليك».

بدت نبرته شديدة الصراحة إلى درجة اضطرتها إلى التركيز على كلماته، فتابع: «من يحتاج إلى الحب في حين أننا نتشارك بشغف عميق وحاد كهذا؟»

- أنا أحتاجه.

أغمضت غرايس عينيها واجتاحتها موجة من اليأس لرؤية الاحباط القوي البادي في عيني خافيير، ثم قالت بكآبة: «أنت موهوب في فن الإغواء خافيير... لا شك أنك حظيت بالكثير من التمرين. لكن من دون الحب والثقة ماذا يبقى لدينا، سوى بضع لحظات من المتعة الفارغة؟»

صرخت بقوة عندما حذرتها عضلات كتفيه وقساوة تعابير وجهه، بأنه على وشك أن يفقد السيطرة على ذاته، فقالت: «خذ جسدي إذا أردت! لن أتمكن من منعك لو حاولت، كلانا ندرك ذلك. لكنك ستقوض كل ما تبقى لي من الاحترام القليل لذاتي، خصوصاً بعد الأشياء التي فعلتها مؤخراً».

تراجع خافيير إلى الوراء كما لو أنها صفعته، ثم سألها بوحشية: «أية أشياء؟ غرايس، هل تخجلين من زواجك بي؟»

أقرت غرايس بصوت أبح: «أنا لست فخورة بالكذب. ولا أفخر بالتعهد بنذور كاذبة في الكنيسة، في حين أنني أعلم بأنني لن أفي بها مطلقاً. لكنني أحب والدي أكثر من أي شخص في العالم. ما كان يجدر به أن يسرق تلك الأموال منك، لكنني أفهم لِما فعل ذلك. عانى والدي الأمرّين عندما خسر والدتي، وكرامتي ليست سوى ثمناً زهيداً أدفعه مقابل أن يسلم والدي من الحكم بالسجن».

زمجر خافيير ساخراً: «أنت تتمتعين بالمبادئ أكثر من اللازم. لعله أمر جيد أنني راحل من هنا لبعض الوقت».

أرجح رجليه من فوق حافة السرير قبل أن يمشي بخطوات واسعة نحو

الحمام المتصل بغرفة النوم.

- راحل؟ إلى أين؟

- إلى مدريد. لدي سلسلة لقاءات عمل في المكتب الرئيسي للمصرف. لدي أيضاً عدة دعوات اجتماعية.

ردّت غرايس بنبرة لاذعة، وقد آلمها مقته المرير: «ألن يستغرب أصدقاؤك حضورك بمفردك؟».

رد خافيير من دون مبالاة: «سوف أفكربعذر ما لتغييك... سأقول إنك مريضة أو ما شابه. بالرغم من أنني أخشى أن يعتقدوك حاملاً».

قال ذلك متهكماً، ثم تابع: «على أي حال، لن أكون بمفردي فلوسيتا ذاهبة برفقتي. أقنعت والدها بأنه حان أوان ظهورها على الساحة الاجتماعية في مدريد».

أجبرت غرايس نفسها على أن تبدو غير مكترثة، لكنها راحت تغلي من الداخل بسبب المشاعر المضطربة، فقالت: «وهل تم تعيينك جليساً للأطفال لترعاها؟ كم يبدو ذلك متعباً بالنسبة إليك».

- أنا واثق بأنني سأحيا، فلوسيتا على الأقل تعرف كيف تمضي وقتاً ممتعاً.

- أراهن أنها تفعل. أليست يافعة قليلاً بالنسبة إليك؟

تذكرت تلك الفتاة الإسبانية المدهشة وهي تغازل خافيير بشكل فاضح خلال حفل عشاء حضراه مؤخراً. تمهل خافيير في مدخل باب الحمام موجهاً إليها ابتسامة لطيفة، وقال: «حسناً! عزيزتي، أوشك على التصديق أنك تغارين».

أخبرته غرايس بمزاج سيء: «حسناً! أنا لا أغار، فلا تغترّ بنفسك. أنتظر بشوق أن أحظى بقليل من السكينة والهدوء بعد رحيلك، لذا لا تسرع بالعودة».

بعد مرور أسبوعين، أقرت غرايس ببؤس وحزن أن خافيير لا يبدو على عجلة من أمره ليعود إلى القصر. أما عذره للتأخير فهو اضطراره إلى تحمّل

أعباء عمل غير متوقعة، لأن بعض المشاكل طرأت في المكتب الرئيسي للمصرف. بدا متعباً خلال المناسبات القليلة التي كالمها فيها هاتفياً، أما غرايس فقد اتصلت به إلى شقته في مدريد مرتين، مبتدعة أعذاراً سخيفة أمضت وقتاً طويلاً في ابتكارها. لكن من أجاب على اتصالها امرأة ذات نبرة مشرقة جعلت الغيرة تتآكلها كما لو أنها نار حارقة. لم تكن تلك لوسيتا، فالصوت بدا صوت امرأة متميزة راقية. من تلك التي ترفه عن خافيير في شقته الخاصة في ساعة تكاد تقارب العاشرة مساء؟ أتراها إحدى عشيقاته السابقات؟ كان يجدر بها أن تتحلى بالجرأة والشجاعة حتى تسأله، عوضاً عن إقفال السماعة في وجهه وقضاء ليلة أخرى من الأرق، وهي تتصوره مع امرأة خارقة الجمال.

قالت غرايس للوكا إنها لا تفهم سبب اضطرابها وغضبها إلى هذا الحد، أما كلب خافيير فهو مثلها تماماً يتوق لسيده، وراح يلاحق غرايس في أرجاء القصر كظلها. قالت له غرايس بنزق: «أنا لا آبه إلى ما يفعله، أو إلى من يكون معه».

انتابها شعور بأن لوكا يدرك أنها تكذب. بدا القصر هادئاً جداً وكئيباً أثناء غياب الدوق، فبعد رحيله، أدركت غرايس مقدار الوقت الذي كانا يمضيانه سوياً. همست قائلة: «أهو أمر سيء جداً لو أقريت بأنني أفتقده؟ إذا كان هذا ما أشعر به الآن، فما بالك عندما ينتهي زواجنا».

لعق لوكا يديها متعاطفاً، فربتت غرايس عليه وقالت له بكل جدية: «أنا لست مغرمة به. أنا بكل بساطة لا يمكنني حمل نفسي على التوقف عن التفكير به. هذا كل شيء».

* * *

بعد مرور ثلاثة أيام سمعت غرايس أزيز محرك طوافة خافيير وهي تنزل فوق الجبال. غطت عينيها بيدها وهي واقفة في الحديقة تراقب هبوطها، ثم اندفعت إلى الطابق العلوي مسرعة حتى تبدل سروالها القصير والقميص القطنية، فترتدي أحد الفساتين التي تملأ خزانة ملابسها. راحت أناملها

ترتعش وهي تفك رباط شعرها ليسقط منسدلاً على كتفيها. قالت لنفسها بصرامة إنها لا تود أن تبدو كما لو أنها بذلت جهداً لتبدو جميلة، لكنها لم تقوَ على مقاومة وضع لمسة من أحمر الشفاه اللماع على شفتيها، كما رشّت العطر على رسغيها بكرم.

خافيير في المنزل الآن! فجأة بدا لها كأن حجارة القصر القديمة العهد تبتسم. ما إن هرعت غرايس لتعبر الباب الأمامي حتى رأته يمشي بخطوات واسعة عبر الباحة الخارجية، لكنها لم تكن مستعدة لوقع تأثير رؤيته عليها. بدا لها كأنما قلبها توقف عن الخفقان، ثم بدأ ينبض مجدداً بضعف سرعته الاعتيادية. فكرت بضعف أنها افتقدته كثيراً، لذا تمهلت قليلاً على الشرفة الخارجية المغطاة بالظلال بينما حاولت استعادة سيطرتها على مشاعرها. نظر خافيير إلى الأعلى فرآها. التوى فمه بابتسامة مدمرة جعلت نواياها تذهب في مهب الريح.

- خافيير!

أسرعت غرايس نزولاً على الدرج وهي لا تكاد تلاحظ شاحنة إيصال الطلبيات التي تسير إلى الخلف على الدرب المؤدي إلى القصر. لكنها استطاعت أن تلتقط بطرف عينها أثراً أسود اللون ينطلق بسرعة فائقة من المدخل الجانبي، فصرخت: «لوكا... لا!»

سُمع صوت الارتطام المسبب للغثيان ثم عواء الكلب الذي يئن متألماً. أبعدت غرايس نظراتها عن منظر الكلب المستلقي من دون حراك تحت إطار الشاحنة، والتفتت نحو خافيير. حين رأت التعابير البادية على وجهه أحست برغبة في النحيب. تساءلت كيف تراها استطاعت أن تظن بأن خافيير يفتقر إلى القلب والمشاعر؟ أخبرها أنه لا يؤمن بالحب، لكنها الآن تمتلك الدليل على أنه يكذب. لبضع ثوان لمحت في عينيه الألم المحض والخوف والتعاطف الوفي الذي يشعر به تجاه صديقه الوفي، لكنه عاد وسيطر على أحاسيسه فأسرع متجهاً نحو لوكا. إنه رجل قادر على منح الكثير من العاطفة، نظراً إلى أنه تلقى قدراً قليلاً جداً من الحب في حياته. طفولته جعلته شخصاً حذراً

عديم الثقة بالناس، ولكي يتجنب خطر أن يجرح مجدداً، قام خافيير بتوجيه عاطفته بإسراف نحو كلبه.

تكلم خافيير وهو راكع إلى جانب الكلب بصوت ملؤه الانزعاج قائلاً لغرايس التي مشت متعثرة نحوه: «اطلبي من توريس أن يتصل بالطبيب البيطري بسرعة، فهو يفقد الكثير من الدم».

خلال الساعات القليلة التالية راحت تصلي كي ينجو هذا الحيوان الأليف. إنها مستعدة لأن تفعل أي شيء مقابل أن يحيا لوكا وترى الابتسامة على وجه خافيير من جديد. فتحت الفكرة شقاً صغيراً في ذهن غرايس، وفجأة أحست أن كل شيء يبدو منطقياً جداً. إنها تحب خافيير! هذا هو السبب الذي جعلها تشعر بكل يوم من أيام غيابه طويلاً رمادياً لا ينتهي، وذلك بغض النظر عن سطوع شمس أواخر فصل الصيف. بشكل ما، ومن دون أن تدرك ذلك، أصبح خافيير شمسها وقمرها وسبب حياتها.

أقرت غرايس مرتعشة فيما خطت عبر حديقة الورود، بأن شعورها ليس مجرد نزوة عابرة. أخبرها خافيير خلال شهر عسلهما أنه الرجل الوحيد المناسب لها، وهي لم تتمكن من نكران ذلك. إنه يثير فيها مشاعر وأفكاراً بدائية جداً ما زالت حتى الآن تسبب لها الصدمة، لكنه الرجل الوحيد الذي جعلها تشعر بذاتها كامرأة كاملة.

بعد أن رأته اليوم مع لوكا، أدركت غرايس أخيراً أن مشاعرها نحوه تتعدى المشاعر الحسية. رغبت باحتضانه لكي تحميه من الألم والأذى. بفضل خافيير لن يمضي والدها السنوات القليلة المقبلة في السجن. وبالرغم من أن كليهما حظيا بمكاسب معينة من عقد زواجهما، عاملها خافيير بكل احترام وتقدير. ليست مصادفة أن فريق عمله وموظفيه يقدرونه ويحترمونه، فغرايس اكتشفت أنه تحت واجهة الغرور والتعالي، لطيف وساحر، ويتمتع بشغف وسحر يجعلانها تتوق إليه. لكن في يوم زفافهما حذرها خافيير بألا تتوقع أشياء غير موجودة، قائلاً إن من المستحيل أن يغرم بها أبداً. يومها كانت غرايس تعتقد أنه صلب وقاس لا يمكن اختراقه، تماماً كجدران هذا القصر.

حسناً! لمجرد أنها لمحت صدعاً في درعه الواقي ليس سبباً كافياً لأن تأمل بأنه قد يتوصل أبداً إلى اعتبار هذا الزواج أي شيء أكثر من مجرد عقد عمل مؤقت.

الآن بالذات، الشيء الوحيد الذي يشغل تفكير خافيير هو لوكا، وهو ليس في مزاج يسمح له بالتعامل مع أحاسيسها. آخر شيء تود فعله هو أن تحرج نفسها بالكشف عن مشاعرها له. استنشقت غرايس نفساً عميقاً ومشت عائدة إلى داخل القصر. عندما انضمت إليه داخل المطبخ الضخم، أخبرها خافيير أن لوكا يعاني من كسور في رجله والكثير من الرضوض. تطلّب نقل لوكا إلى داخل القصر تعاون كل من خافيير وتوريس اللذين حملاه إلى هناك. أما الطبيب البيطري فأبدى تردداً بشأن تحريكه مجدداً، وعوضاً عن ذلك عالج جراح لوكا وأعطاه مسكناً قوياً. والآن لم يعد أمامهم سوى الانتظار والتأمل بأن ينجو الكلب.

تكلم خافيير بعبوس وتجهم قائلاً: «الساعات الأربع والعشرين المقبلة هامة وحاسمة، لكن الطبيب البيطري واثق من أنه سيتعافى».

غمغمت غرايس متحمسة: «آه! آمل ذلك».

ركعت إلى جانب خافيير ومسّدت فرو الحيوان الفاقد الوعي، ثم تابعت بصوت ثخين: «أعلم كم تهتم لأمره».

أحست بالدموع تحز عينيها حين تذكرت الاحباط والألم اللذين ظهرا في عيني خافيير ساعة وقوع الحادث. ظهر التوتر على خافيير، وما لبث أن أمسك بذقنها ورفع وجهها لكي يتمكن من النظر إلى عينيها، ثم قال: «أحياناً أشعر أنك تعرفين الكثير عني، غرايس. أشعر بهاتين العينين الزرقاوين العميقتين تنظران إلى داخل روحي فتكشفان عن أسراري».

همست غرايس وقد خدرتها قوة نظرته: «أرغب بألا تكون هنالك أسرار بيننا. أنت زوجي... بالرغم من أنه يبدو وكأنك نسيت هذه الحقيقة خلال الأسابيع القليلة المنصرمة».

تذكرت غرايس صوت تلك المرأة التي ردّت على الهاتف في شقة خافيير، فابتلعت ريقها. الآن لا يبدو الوقت مناسباً للكشف عن غيرتها غير المنطقية.

التوى فم خافير في شبه ابتسامة جميلة لم تبلغ عينيه، فقال: «أتظنين أن بمقدوري أن أنساكِ؟ ليتني أقدر على ذلك عزيزتي، لكن الواقع أنني أمضيت كل دقيقة وأنا أفكر بك، وأحلم كل ليلة بأنك مستلقية إلى جانبي، وبأن وجهك قريب جداً مني، وأنني إذا أدرت رأسي يمكنني أن أعانقك... هكذا».

تحرك خافير نحوها برفق ولطافة، كما لو أنه يرغب بأن يعوض في هذه اللحظة عن كل الأيام التي أمضياها بعيدين عن بعضهما. فكرت غرايس ببساطة أن هذا هو المكان الذي ترغب بالتواجد فيه، فلفت ذراعيها حول عنقه وتجاوبت مع عناقه بشغف رقيق.

عندما رفع خافير رأسه لاحظت خطوط الارهاق البادية حول عينيه، فغمغمت قائلة: «يجدر بك أن تحاول النوم».

- ليس الليلة... أرغب بالبقاء مع لوكا، فلربما تحرك.

- حسناً! على الأقل استرح لبضع دقائق. يمكنك أن تستحم وتتناول بعض الطعام. أنا سأجلس معه، وأعدك أنني سأناديك إن طرأ أي تغير في حالته.

كانا ما يزالان راكعين على الأرض إلى جانب سلة لوكا. أخيراً وقف خافير وجذبها لتقف على قدميها، قال بصوت أبح: «غرايس، أنا لا أستحق لطفك. أنت هي من يجدر بها أن تنام قليلاً، فسوف تستقلين الطائرة إلى إنكلترا غداً».

قفزت إلى ذهنها أفكار متسارعة، فتلعثمت قائلة: «أتقصد أنك... سترسلني بعيداً من هنا؟ لكن لماذا؟»

أتراه سئم منها ومن مبادئها الأخلاقية، ويريد أن يبعدها عن طريقه ليتمكن من إحضار عشيقته إلى القصر؟

انخفض حاجبا خافير في عبوس يدل على الارتباك والحيرة بسبب انزعاج غرايس الواضح، وقال: «فقط لمدة أسبوع. أدرك كم تفتقدين إلى والدك، لذلك رتبت الأمر لكي نزوره سوياً، لكنني لا أستطيع ترك لوكا بهذا

الوضع».

غمر الارتياح غرايس فوجهت له ابتسامة غير واثقة، وقالت: «بالطبع لا، لكننا نستطيع تأجيل الرحلة إلى أن يصبح بحال أفضل».

- أنا واثق من أنك لم تنسي أن عيد مولد أنغوس سوف يحل بعد عدة أيام. تحدثت إلى عمتك هاتفياً، فقالت لي إنه ينتظر رؤيتك بفارغ الصبر.

مسّد خافير شعر غرايس بعيداً عن وجهها، ثم قال: «لا يمكنك أن تخيبي ظنه عزيزتي».

أقرت غرايس بأنها فعلاً لا تستطيع تخييب ظن والدها، لكن ذهنها انشغل بخافير إلى درجة نسيت معها عيد مولده. سألته بهدوء: «متى سأغادر؟»

- غداً باكراً. يجدر بك أن تذهبي إلى السرير، وسأراك في الصباح.

أومأت غرايس برأسها وهي لا تثق بنفسها لكي تقول شيئاً. لكن ما إن وصلت إلى الباب حتى استوقفها صوت خافير وهو يقول: «غرايس! سوف تعودين أليس كذلك؟»

بدت التعابير في عيني خافير غامضة، لكنها لاحظت اللون الباهت الذي علا عظمتي خديه الحادتين. وعدته بنعومة: «بالطبع سأعود. لقد عقدنا اتفاقاً أتذكر؟»

لكنها تعذبت لما تبقى من الليل بسؤال نفسها كيف يمكنها أن تحيا من دون خافير بعد أن تنتهي مدة عقد زواجهما. كذلك فهي لم تقوَ على إخفاء بؤسها عندما قاد توريس السيارة بعيداً عن القصر صباح اليوم التالي.

* * *

فكرت غرايس أن الخريف قرر كما يبدو أن يصل باكراً هذه السنة إلى شاطئ إنكلترا الجنوبي، وذلك بعد مرور اليوم الخامس من الطقس المشحون بالأمطار الجارفة الغزيرة. حدّقت خارج نافذة منزل الضيوف الخاص بالعمة بام، ونظرت باتجاه العشب الأخضر المغمور بالماء، فيما فكرت بتوق وكآبة بأشجار النخيل الاستوائية وبالحشائش النامية في حدائق قصر الأسد.

أقرت أنها بالكاد تطيق صبراً حتى تعود إلى هناك. إلا أن شوقها هذا ليس سببه شمس غرناطة الدافئة، فهي قد تعيش بسعادة في القطب الشمالي طالما هي مع خافير.

- مات الملك!

أعلن أنغوس بيريسفورد ذلك بسرور رافعاً رأسه لينظر نحو غرايس من فوق حافتي نظارتيه، وتابع: «شيء ما ينبؤني بأن ذهنك لم يكن منصباً كلياً على اللعبة حبيبتي».

أجابت غرايس مبتسمة: «أنا لم أتمكن أبداً من التغلب عليك في لعبة الشطرنج، أبي. لطالما كانت والدتي أفضل مني».

ساد السكون على أنغوس للحظة ثم ردّ ابتسامتها ببطء، وقال: «نعم، كانت تقدر على التغلب علي بسهولة، رحمها الله».

لطالما تجنبت غرايس أي ذكر لوالدتها خشية أن ترسل والدها في نوبة اكتئاب عميق يستمر لأيام عديدة. أما الآن فقد أصبح أنغوس قادراً على تحمل خسارة المرأة التي أغرم بها منذ أن وقعت عيناه عليها، وذلك بفضل مساعدة أخصائي في هذا المجال. انحنت إلى الأمام لتقبل أنغوس على خده مدركة أنه ما زال أمامه درب يقطعه. فهو سوف يتابع تناول الأدوية الخاصة بالاكتئاب لعدة أشهر مقبلة بعد. ما تزال هنالك فجوات كبرى في ذاكرته، وهي متأكدة من أنه يتذكر تفاصيل قليلة عن آخر سنة له كمدير للمصرف وعن محاولا ته اليائسة للتعامل مع المشاكل المالية المتزايدة.

بفضل خافير أصبح أنغوس حراً من الملاحقة القانونية، وهو في مأمن حيث ترعاه العمة بام. غرايس لن تسمح بأن يعرف مطلقاً ما هو الثمن الذي دفعته مقابل حريته، لقد وهبت سنة من عمرها لرجل تمقته.

أقرت بألم أنها بالطبع لا تمقت خافير. استحال عليها أن تفكر بأنها كرهته يوماً، في حين أن حبها له يملأ قلبها كالطوفان. قوطعت أفكارها لدى سماعها جرس الباب. تبع ذلك النباح الحماسي لجراء العمة بام الثلاثة. سمعت توسل العمة الخافت: «هيا بنا مستي إلى المطبخ، وأنت موبيت توقف

عن مضغ خفّي. غرايس، هل يمكنك أن تفتحي الباب؟»

أسرعت غرايس في عبور البهو محاولة ألا تبتسم، وفتحت الباب الأمامي. كاد قلبها يثب من صدرها عندما حدقت في عينين ذهبيتين مألوفتين، قالت: «خافير! ماذا... ما الذي تفعله هنا؟»

تلعثمت وقد غمرها الخوف المفاجئ، فقالت: «لوكا...؟»

طمأنها خافير بسرعة: «إنه يتعافى بسرعة أكبر مما توقع الطبيب البيطري. جئت لآخذك إلى المنزل، بالطبع».

أخبرها ذلك بلمحة من التعجرف والتعالي اللذين تعرفهما جيداً، لكن الدفء البادي في عينيه، أخبرها أنه لا يقوى على التحكم بأحاسيسه. قال: «فكرت أن زوجتي تغيبت لفترة طويلة بما يكفي».

تكلمت غرايس مبهورة فقالت: «لكنك تعلم أنني سأعود غداً. أنت رتبت لي موعد الرحلة».

كان خافير يرتدي سروالاً من الجينز الباهت اللون مع سترة جلدية سوداء أبرزت عرض كتفيه الواسعتين. أما شعره فكان بحاجة إلى القص بحيث التفّ فوق قبة سترته، فيما غطت فكه ظلال غامقة اللون فبدا لها كما لو أن رحلته إلى انكلترا جاءت وليدة اندفاع جنوني.

تشدّق خافير قائلاً: «الصبر ليس مطلقاً إحدى نقاط القوة لدي. طائرتي الخاصة تنتظر في المطار المحلي. اذهبي واجلبي أغراضك».

طالبته غرايس: «أتقصد أنك تريد الذهاب الآن بالذات؟ لكنني لم أوضب أمتعتي أو أي شيء. ما الأمر حقاً، خافير؟ هل ظننت أنني قد أخلف باتفاقنا؟ لقد أعطيتك كلمتي بأنني سوف أعود إليك، لكن من الواضح أنك لا تثق بي».

زمجر خافير وتلاشت ابتسامته ما إن لاحظ تلألؤ الدموع في عينيها، فقال: «ليست مسألة ثقة».

تذمرت غرايس قائلة: «لمَ الضرورة المفاجئة إذاً؟ فأنت تبدو كأنك سقطت خارج سريرك هذا الصبّاح فوقعت مباشرة في الطائرة إلى هنا».

هز خافيير كتفيه، وفجأة بدا مصمماً على تجنب نظراتها فقال: «الضرورة هي أننا أمضينا ما يقارب الشهر منفصلين عن بعضنا. أنا أمضيت في مدريد فترة تزيد عما خططت له، ثم جئت أنت هنا للاحتفال بعيد مولد والدك».

بدا خافيير محرجاً فلاقت عيناه عينيها للحظة، ثم بسرعة غير اتجاههما بعيداً عنها، وقال: «أنا... اشتقت إليك».

- آه!

أحست غرايس كما لو أن كورساً من الملائكة راح يرتل داخل رأسها، فوجهت لخافيير ابتسامة خجولة وهمست: «أنا... اشتقت إليك أيضاً».

حدّقت به فأجبرته على النظر إليها. أخذ قلبها ينبض بقوة عندما التوى فمه في ابتسامة بطيئة تعدها بالجنة.

- غرايس...!

نظر خافيير إلى أعماق عينيها، فارتعشت كما لو أن موجة من الكهرباء مرت بينهما.

غمغمت غرايس منقطعة الأنفاس: «نعم؟»

- هل تظنين أنه يمكنني الدخول من تحت المطر قبل أن أغرق؟

- آه! نعم، بالطبع. أنا آسفة جداً!

تراجعت غرايس فأدخلته إلى الصالة، بينما التهبت وجنتاها باللون الأحمر. كان خافيير مبللاً جداً. رفع إحدى يديه ليمسد شعره الذي يقطر ماء بعيداً عن جبينه. أحدثت غرايس جلبة وهي تجذب سترته قائلة: «أنت مبتل بالماء حتى جلدك... دعني أساعدك على خلع ملابسك».

تراقصت عينا خافيير المستمتعتان برؤية وجهها المحمر خجلاً، فقال يغيظها: «أنا تحت تصرفك عزيزتي، لكنني لست واثقاً من أنه يجدر بك أن تجرديني من ملابسي في البهو. قد لا توافق عمتك على ذلك».

قالت له غرايس معاكسة: «أنت فعلاً من صنع الشيطان، خافيير هيريرا».

ثم ضاع تدفق مزاجها الغاضب تحت وطأة عناقه المشتاق. تعلقت غرايس

به، من دون أن تبالي بملابسه المبللة، فهي مشتعلة بالنار بسببه.

دمدم خافيير بصوت خشن حين رفع رأسه: «عودي إلى المنزل غرايس، فمكانك معي».

أتراه يقصد شروط عقد زواجهما؟ فكرت غرايس برفق أن ذلك لم يعد يبدو لها مهماً. جل ما يهمها هو أن تكون مع الرجل الذي تحبه، مهما كانت المدة التي يريدها هو. وجهت له ابتسامة اخترقت روحه، وأسرعت تصعد الدرج لتوضب أمتعتها.

١٠ - لا تبعدني عنك!

- يجدر بي البقاء في مدريد لبضعة أيام، وفكرت بأنك ربما تودين تمضية بعض الوقت في المدينة قبل أن نعود إلى القصر.

أخبر خافيير غرايس بذلك عندما أوقف السيارة في مرآب السيارات السفلي التابع للمبنى حيث تقع شقته، ثم قاد غرايس إلى داخل المصعد.

فكرت غرايس بصمت أنها لا تمانع طالما هي مع خافيير، آملة أن تخفي ابتسامتها الباردة ذاك الحماس الهائج الذي أخذ يتصاعد في داخلها منذ أن صعدت على متن طائرته الخاصة. افتقدته كثيراً خلال الأسابيع القليلة المنصرمة التي أمضياها منفصلين، لكن فقط الآن أدركت تماماً كم تاقت له، فيما تمعنت بملامح وجهه الخشن. كيف تراها ستحيا من دونه؟ تساءلت غرايس بخوف فيما أقلهما المصعد. بعد تسعة أشهر من الآن سوف تنتهي مدة عقدهما فيذهب كلٌ منهما في طريقه، لكنها لن تتحرر منه أبداً. لقد عرفته روحها كنصفها الآخر، وحين يفترقان سوف تمضي بقية حياتها وهي تشعر بالفراغ وعدم الاكتمال. غمغمت وهي تنظر نحو خافيير عبر البهو الواسع الخالي من الحياة نوعاً ما: «أصبح الوقت متأخراً ولا بد أنك متعب، فقد أمضيت معظم يومك في الفضاء. أين وضعت حقيبة أغراضي؟ أفترض أنها في غرفة النوم الرئيسية».

أضافت جملتها الأخيرة وقد أحست بارتعادة تعبر جسدها لدى تفكيرها بمشاركته السرير مجدداً. هي لم تشاركه أبداً السرير في الشقة. لا بد أن خافيير سيتبع الليلة الوعد الظاهر في عينيه، فيأخذها بين ذراعيه.

تمشى خافيير عبر البهو قليلاً، ثم قال: «وضعت حقيبتك في غرفة النوم

الموجودة في نهاية الرواق، حيث نمت من قبل».

تمهل برهة، ثم تابع: «قررت من الآن فصاعداً أن تنامي في غرفتك الخاصة، هنا وفي القصر أيضاً».

أحست غرايس كما لو أن قلبها سقط دفعة واحدة حتى أصابع قدميها لدى سماعها هذا التصريح غير المتوقع، فغمغمت: «فهمت!»

هذا يوضح لها تماماً بأنه ما عاد يريدها، ولا بد أنها أخطأت حين رأت الشوق في عينيه. حدّق خافيير بعزم ثابت خارج النافذة، ثم قال لها بخشونة: «كنت مخطئاً حين طالبتك بمشاركتي سريري... وحين توقعت منك أن تضحي بقيم هي ذات أهمية بالنسبة إليك. لا بد أن تفهمي أن سبب ذلك يعود إلى حقيقة أنني لم أتعرف أبداً إلى امرأة تتمتع بالمبادئ من قبل. أنت لست مثل النساء الأخريات. أليس كذلك، عزيزتي؟»

التوى فمه في ابتسامة لم تصل إلى عينيه.

- لا يمكنني أن أوافقك على إيمانك الأعمى بالحب الأزلي وبالنهايات السعيدة الشبيهة بقصص الجنيات الخرافية، لكنني أدركت أنه لا يحق لي تدمير معتقداتك، أو إفساد براءتك اللطيفة بسخريتي. أعدك أنك من الآن فصاعداً سوف تمضين كل ليلة في غرفتك الخاصة.

رمشت غرايس عينيها وقد ضاعت منها الكلمات، ثم نعقت أخيراً قائلة: «شكراً لك».

لم تسمح لها عزة نفسها أن تقر أن فقدان تلك الحميمية التي تشاركا بها من قبل سوف يدمرها.

تساءل خافيير: «أنت لا تبدين سعيدة جداً. ما الخطب الآن؟»

ضاقت عيناه وهو يلاحظ الذبول المفاجئ في فمها، فيما تذمرت غرايس قائلة: «أنا فقط أشعر بالفضول حيال تغييرك المفاجئ لرأيك. أفترض أن للأمر علاقة بعشيقتك التي أقامت هنا معك حين تركتني وحيدة في غرناطة؟»

ارتفع حاجبا خافيير جزئياً وقال: «ليس لدي عشيقة».

- آه! ما بالك؟ قد أكون بريئة لكنني لست مغفلة. ففي كل مناسبة

اتصلت فيها كانت امرأة ترد على الهاتف... ولم تكن تلك لوسيتا.

أضافت غرايس الجملة الأخيرة بحدة، وهي غير قادرة على إخفاء الغيرة البادية في صوتها.

وافقها خافيير برصانة: «لا! لوسيتا تقيم مع نسيبتها في الجانب الآخر من المدينة. المرأة الوحيدة التي جاءت إلى هنا هي بيلار... مدبرة منزلي».

أضاف خافيير كلماته الأخيرة مفتراً حين عبست غرايس.

- فهمت!

تذكرت حين دخلت إلى شقة ريتشارد كوينتين، لتجده في السرير مع مدبرة منزله. يومها أحست بالدمار والاحباط التام لدى اكتشافها الخيانة الفظة لرجل اعتقدت أنها تحبه. أما الآن، فرغبت بأن تتقيأ لمجرد تصورها لمنظر خافيير وهو يتقلب على أغطية الفراش مع مدبرة منزله الجميلة. قالت بصوت ثخين: «بيلار... أهي جميلة بمقدار اسمها؟ وهل تلبي كل رغباتك، خافيير؟»

بدا عليه الارتباك والحيرة بوضوح لعدائيتها، فأجابها: «إنها حتماً طباخة ماهرة، لكنني أخشى أن التهاب مفاصلها بدأ يسوء إلى حد يجعلها ترغب بالتقاعد قريباً، والانتقال للسكن مع ابنتها وأحفادها. إنها تقيم معهم الآن لعدة أيام».

ثم أضاف: «لكنها أعدت لك سريرك قبل مغادرتها».

تمنت غرايس لو أن بمقدورها أن تزحف فتختبئ تحت صخرة ما. قالت: «أشكرك لإيضاح ذلك. أعتقد أنه يجدر بي أن أذهب إلى الفراش قبل أن أحرج نفسي أكثر. عمت مساء».

أنّت بصمت دلالة على عدم رضاها عن لمحة التسلية التي التمعت في عيني خافيير.

- عمت مساءً، عزيزتي. نامي جيداً.

حيّاها خافيير بصوت مغيظ جعلها تتلوى من شدة خجلها، فأومأت بسرعة وحثت الخطى في البهو متجهة إلى غرفتها.

استحمت غرايس وجففت شعرها بمجفف الشعر الكهربائي، ثم انزلقت إلى السرير حيث غفت بتململ لا يعرف الراحة. استيقظت قبل ساعة من طلوع الفجر. وما إن استرجعت ذكرى الاتهامات الجامحة التي قذفتها نحو خافيير، تأوهت وجذبت الوسادة فوق رأسها. كيف استطاعت أن تكون بهذا الغباء؟ لا بد أن خافيير حلّل الأمر، وأدرك أنها تكنُّ له المشاعر. أقرت بتشاؤم: وأيُ مشاعر هذه! منذ اللحظة التي وقعت عيناها عليه في منزل العمة بام، بدأ جسدها الخائن يضج بأحاسيس من الشغف الحامي، وخده خافيير يستطيع إثارتها فيه. إنها مشتاقة إليه إلى حد جعل الشوق ينبض في عروقها بضربات بطيئة هادئة. أطلقت غرايس أنّة إحباط، ثم رمت الأغطية إلى الوراء وسارت نحو الحمام، آملة أن تخمد المياه الباردة حرارتها الحارقة. فكرت بشعور من الحتمية أنها وجدت في خافيير قدرها، وإن كان قدراً قصيرالأمد. أقرت بذلك بألم وهي تفكر بالطلاق الذي سيحين موعده بعد تسعة أشهر. لكنها تحبه! إن الوعود التي قطعتها يوم زفافها لم تكن أكاذيب، فهي قصدت كل كلمة قالتها، بالرغم من أنها لم تدرك ذلك حينها. سوف تحب خافيير في المرض وفي الصحة ولبقية حياتها، كما أنها تتوق لأن تكرّمه بالحصول عليها كل ليلة من الأشهر المتبقية لزواجهما.

أسرعت غرايس بعبور الرواق المؤدي إلى غرفة خافيير من دون أن تسمح لنفسها بأن تستجمع أفكارها وشكوكها. راح قلبها يدق محدثاً صوتاً قوياً، وفاجأها أن المبنى بأسره لم يرتجّ لدويّه. طمأنت نفسها أن خافيير لا يزال نائماً، وحين يستيقظ سيجدها مستلقية إلى جانبه، أما هي فستقول له إنها تسير في نومها. إذا كان الحظ حليفها سوف يأخذها خافيير بين ذراعيه قبل أن يستيقظ تماماً. بعدئذٍ من يعلم ما الذي قد يحدث؟

دفعت الباب ففتحته بحذر، لكن قلبها تجمد في مكانه عندما رأت زوجين من العيون العسلية تركزان نظراتهما عليها عبر الغرفة.

- غرايس! هل من خطب؟

ظنت أنها ستجده نائماً، إلا أن خافيير كان مستنداً إلى الوسائد، فيما تدلى الغطاء فوق وركيه، تاركاً صدره ومعدته المشدودة مكشوفين.

بدا مستيقظاً تماماً وجذاباً إلى حد الخطيئة. جاذبيته جعلتها تشعر بالضعف فرطبت شفتيها بتوتر.

- ليس هنالك أي خطب، أنا فقط...

قطعت غرايس كلامها فاقدة الحيلة فيما أذابت عظامها تلك الحرارة في عيني خافيير. انفجرت بعدئذٍ لتقول بشجاعة: «خافيير! أنا لا أمانع في أن نقيم علاقة حميمة».

- غرايس! لا يجدر بك أن تتفوهي بأشياء مماثلة.

أفلت اسمها من شفتيه بأنين خافت، فارتعشت تحت قوة نظراته الحادة.

غمغمت غرايس: «لِمَ لا؟ نحن متزوجان».

مشت بضع خطوات لتدنو من السرير، شجعها على ذلك وميض الشوق البادي على وجهه، قالت: «أريد أن أصبح زوجتك بكل ما في الكلمة من معنى».

دمدم خافيير بصوت أجش: «يجدر بي أن أطردك من غرفتي، فأنا لست الرجل المناسب لك عزيزتي. لكن رقتك وجمالك يغويان حتى القديس، وأنا لم أعلن أبداً إيماني بالتقوى وتمسكي بالورع».

أبعد غطاء السرير إلى الخلف، ثم تناول يدها وجذبها إلى السرير. كانت غرايس ترتجف، أم تراه هو الذي يرتجف؟ رفع يدها نحو فمه فمرر شفتيه برقة فوق مفاصل أناملها، ثم قال: «لا تنظري إلي هكذا. آخر شيء أود فعله هو أن أؤذيك. هل تثقين بي؟»

أمسك خافيير ذقنها فأجبرت على النظر إليه. رأت الشغف الرقيق في عينيه، فجعلها ذلك تومئ برأسها من دون كلام. وجهت له ابتسامة غير واثقة، ثم سمعته يستنشق النفس بخشونة قبل أن يخفض رأسه ليعانقها عناقاً حميماً جعلها لا تشك مطلقاً برغبته فيها.

همس خافيير لها قبل أن يتتبع بأصابعه درباً على طول فكها، ثم نزولاً نحو

النبض الذي يخفق بجنون في أسفل عنقها: «إنك صغيرة جداً... كاملة جداً».

- خافيير...!

همست غرايس إلى جانب عنقه فابتسم، لعله لا يعرف الكثير عن الأحاسيس والمشاعر، لكنه عاشق ماهر، كريم وموهوب. بالرغم من أنه لا يستطيع أن يكون صبوراً جداً حين يتعلق الأمر بغرايس.

* * *

في فصل الشتاء تغطي الثلوج قمم جبال السيرا نيفادا، لكن داخل قصر الأسد فإن النيران في المواقد الضخمة تشتعل متوهجة فتحرص على تدفئة كل غرفة منه. ما تزال هنالك ثلاثة أسابيع حتى حلول موعد عيد الميلاد، لكن موسم الاحتفالات بدأ للتو. الليلة يقيم الدوق دو هيريرا حفل عشاء مترف لرجال الأعمال المحليين وأصحاب المقامات الرفيعة في غرناطة.

فكرت غرايس وهي تتحضر للحفل أن الأشهر القليلة الماضية كانت الأسعد في حياتها، فمنذ أن جعلها خافيير زوجته بكل ما للكلمة من معنى لم يمضيا أيّ ليلة منفصلين. عاشا لحظاتهما الحميمة بسعادة وشغف جعلا غرايس تتمتع بابتسامة دائمة على وجهها. لكن معرفتها بأن الوقت بدأ ينفد عكر سعادتها. بعد مرور ستة أشهر من الآن سوف يضمن خافيير موقعه كرئيس لمصرف هيريرا، ثم يرتب لمشروع طلاق سريع منها. بالرغم من تمتعها بحياة زوجية رائعة جداً، لم توهم غرايس نفسها بأنه قد يرغب باستمرار علاقتهما. كل ليلة كان خافيير يضمها إليه بشغف حاد، لكنه ينقلب لاحقاً إلى جهته من السرير فيحرمها من القرب الذي تتوق إليه.

أما المرات الوحيدة التي كان يعانقها خلالها مظهراً عواطفه فهي أثناء النهار، لذا افترضت أنه يقوم بذلك أمام أعين موظفيه، متعمداً عرض هذه المظاهر التي تدل على أنهما زوجان سعيدان.

راقبت غرايس انعكاس صورتها في المرآة، فعلمت أن وهج الحماس البادي على خديها سببه خافيير، الذي سوف يراقصها خلال حفلة الليلة

ويمسكها بقربه بأسلوب تتوق له.

لفت انتباهها حركة خفيفة عند مدخل الباب فحبست أنفاسها، فيما سار خافيير باتجاهها إلى أن انضمت صورته إلى صورتها المنعكسة في مرآة طاولة الزينة.

- أنت تبدين... مميزة.

قال لها ذلك بعد عدة لحظات طويلة، وبعد أن تنقلت عيناه فوق جسدها في تقدير صريح وصادق. غمغمت قائلة: «شكراً لك».

تلاقت عينا خافيير مع عينيها في المرآة، فأحست غرايس بارتعاشة سرور أنثوي لدى رؤيتها التوهج في نظراته. ارتدت غرايس فستاناً من اللون الأحمر النبيذي الغامق ذا تنورة ممتلئة وكمّين ضيقين، تمّ تصميمه بمهارة حتى يبرز رشاقة جسمها إلى أقصى حد. استفسرت بصوت أبح، فيما راقبت فمه يلتوي إلى ابتسامة مدمرة: «كم تتوقع أن تستمر الحفلة؟»

زمجر خافيير: «الفترة طويلة جداً».

انتابها شعور بأنه يخوض معركة داخلية مع ذاته. فجأة انفجر توتره، ففوجئت غرايس حين أنزل رأسه ليضمها إليه في عناق محموم.

بعد قليل غمغم قائلاً: «أتساءل ما الذي يدور داخل رأسك، خلف تلك الابتسامة الهادئة؟ ما رأيك يا حمامتي الرمادية الصغيرة لو عانقتك الآن بالاسلوب الذي أرغب به؟»

- عليك الانتظار، فأنا لا أريدك أن تتلف فستاني.

وجهت له غرايس ابتسامة ماكرة وراقبت التماعاً يتوهج في عينيه.

- أعتقد أنك محقة. بمناسبة الكلام عن فستانك... لدي شيء لك.

أخرج خافيير علبة جلدية رفيعة من جيب سترته وسلّمها إياها.

سألته غرايس: «ما هذه؟»

- افتحيها وسترين.

ابتسم فيما تلمّست المشبك بأناملها، ثم سمعها وهي تشهق محدقة نزولاً نحو العقد المصنوع من الماس والياقوت الأحمر، والمعلق على سلسلة ذهبية

طويلة.

حدّقت غرايس بخافيير بعينين متسعتين وقالت: «إنه رائع! لكنك لا تستطيع أن تعطيني هذا. لا بد أن قيمته باهظة جداً».

- لا تكوني مضحكة. أنت زوجتي، وأستطيع أن أمنحك أي شيء أرغب به.

رفع خافيير الحلية المتدلية من علبتها، فوضعها حول عنق غرايس بحيث استقرت الياقوتة فوق صدرها. ثم قال بملاحظة تدل على رضاه: «إنها تتلاءم تماماً مع فستانك».

- لكن، خافيير...

توقفت غرايس عن الكلام، وحدقت بالجوهرة الثمينة الباردة الثقيلة المستلقية على بشرتها، ثم تابعت تقول: «لا يمكنني الاحتفاظ بها. سوف أستدينها منك، وأعيدها لك عندما أرحل».

استفسر خافيير بتباطؤ: «عندما ترحلين... إلى أين؟»

ألقى نظرة سريعة إلى ساعة يده وتمشى نحو الباب، مشيراً إلى أنه آن أوان نزولهما إلى الطابق السفلي لملاقاة ضيوفهما.

- إلى منزلي... بعد... بعد طلاقنا.

فأفلت غرايس مجيبة، بينما ابتلعت الدموع التي أحست فجأة أنها تسدُّ حلقها لمجرد تفكيرها بأن تتركه. تصلب خافيير، فيما بدا وجهه كقناع مبهم غامض، ثم قال بحدة: «سوف نقلق حيال الأمر حينها. اشتريت هذا العقد لأنني اعتقدت أنه سيعجبك، لكنك ستضعينه حتى لو لم يعجبك. أنت الدوقة دو هيريرا، وأتوقع منك أن تبدي مناسبة للدور وأن تلعبيه جيداً أمام ضيوفي».

أقرت غرايس ببؤس أن تلك ليست بداية ميمونة تبشر بالنجاح لهذه الأمسية.

بعد مرور عدة ساعات، وبعد أن انتهى أخيراً العشاء، بدأ تقديم القهوة في صالة الاستقبال. بدا خافيير أمام ضيوفه زوجاً مخلصاً شغوفاً بزوجته.

هي وحدها التي أدركت أن تعابير وجهه الرقيقة تخفي البرودة البادية في عينيه حين ينظر إليها. دوره كمضيف للأمسية منحه العذر الكافي الذي يسمح له بالتحدث مع كل شخص آخر باستثنائها، كما أنه أمضى معظم فترة تناول الطعام وهويتبادل الغزل مع الشقراء المرحة الجالسة إلى أحد جانبيه، ومع لوسيتا فاسكيز الجالسة إلى الجهة الأخرى.

قالت غرايس لنفسها بقساوة إنها لا تهتم حقاً. من جهة أخرى فإن الغثيان الذي أصابها خلال الأيام القليلة الماضية عاد إليها خلال هذه الأمسية، فتجعد جبينها في عبوس خفيف بسبب تذكرها لقلقها السري من حصول أمر غير مؤاتٍ. إن موعد دورتها الشهرية تأخر... فقط بضعة أيام، لكنه تأخر بما فيه الكفاية ليجعلها تشعر بالهلع.

حاولت أن تطمئن نفسها قائلة إنها لا يمكن أن تكون حاملاً، فذلك شبه مستحيل، لكنها شعرت أن رائحة القهوة القوية تقتحم أحاسيسها. أحست غرايس بارتعادة تعبر جسدها. إنها خليط من الخوف والسرور الميال إلى الخشية، إذ تصورت نفسها لبضع لحظات وهي تحمل طفل خافيير بين ذراعيها. تدخل الواقع متطفلاً على أفكارها بسرعة. ما الذي سيظنه خافيير؟ لعله سيشعربالسرور لذلك. أطلق قلبها رفرفة أمل خافتة صغيرة!

- هل تشعرين بالمرض، غرايس؟ تبدين باهتة اللون أكثر من المعتاد.

قالت لوسيتا فاسكيز ذلك فيما انزلقت لتجلس في الفسحة المتوفرة على الكنبة الصغيرة إلى جانب غرايس. أجابت غرايس وهي تدفع فنجان القهوة الخاص بها إلى الجانب البعيد من الطاولة: «أنا بخير. أشعر ببعض الغثيان، هذا كل شيء. أخشى أنني تناولت الكثير من الطعام الدسم».

أضافت ذلك عندما درست لوسيتا ملامحها بنظرة مشككة.

بدت الفتاة الإسبانية الشابة فاتنة بشعرها الأسود الأجعد المتراقص فوق كتفيها، وبفستانها الأبيض الملتصق بجسدها. كما بدت أنيقة وجذابة بفضل القرطين الذهبيين المعلقين في أذنيها، والأساور العديدة في رسغيها. حدّقت الفتاة بغرايس لبضع لحظات والتمعت عيناها السوداوان قبل أن تطلق

ابتسامة مشدودة وتقول ساخرة: «الطعام الدسم؟ لا أظن ذلك. شقيقتي أنجبت ثلاثة أطفال، وهي لا تقوى على تحمل رائحة القهوة خلال فترة حملها. لعل هنالك سبباً آخر يفسر شعورك بالتوعك».

استنشقت غرايس نفساً حاداً، لكنها وجدت نفسها غير قادرة على ملاقاة نظرات تلك المرأة الشابة، فغمغمت: «يحتمل أن أكون مخطئة. لم أتأكد من ذلك بعد».

لكن الغريزة الأنثوية - القديمة العهد قدم الزمان نفسه - أنبأتها أنها حامل فعلاً.

همست لوسيتا وقد بدا وجهها الجميل فجأة حاداً كوجه ابن عرس: «إذاً، نجح مخطط خافيير. فقد حصل لنفسه على زوجة وعلى وريث أيضاً ضمن السنة المحددة. هذا إنجاز حقيقي».

أحست غرايس بريبة لا يمكن تفسيرها، وبانقباض في معدتها، فسألتها: «ما الذي تعنينه؟ أنت لا تعرفين شيئاً عن زواجي».

صرّحت لوسيتا بنبرة واثقة: «بل أعرف كل شيء. أنا أعلم أن خافيير تزوجك فقط لكي يضمن موقعه على رأس مصرف هيريرا. كما أعلم أنه قرر استخدام هذه السنة التي أُرهق فيها بالحصول على زوجة، حتى يحقق شروط وصية جده، فيصبح والداً لوريث آل هيريرا التالي».

أحست غرايس لبضع لحظات مروعة أن الغرفة تدور بها. قبضت على حافة الطاولة بيدها. لا يمكنها أن تغيب عن الوعي... ليس الآن أمام نظرات لوسيتا الساخرة. رطبت شفتيها الجافتين، وحدّقت بالفتاة ملاحظة توهج الانتصار يتألق في عينيها السوداوين، فهمست: «من أخبرك؟»

أدركت أنه من غير المجدي أن تستمر بالادعاء أنها عروس سعيدة في حين أن لوسيتا واثقة جداً من نفسها ومما تقوله.

طالبتها غرايس سائلة: «أهو خافيير؟»

أحست بالغثيان القوي في معدتها حين ابتسمت الفتاة بكل بساطة. تشدقت لوسيتا قائلة: «لا عليك غرايس. خافيير لن يطلب الطلاق إلا بعد

أن تلدي طفله. من الطبيعي أن يعيش الطفل معه في قصر الأسد، لكنني واثقة من أنه سيسمح لك بزيارته من وقت لآخر».

تعثرت غرايس وهي تهب واقفة على قدميها، ثم قالت: «لا شيء يمكنه أن يبعدني عن طفلي أبداً. أتسمعينني؟ لا شيء! لماذا تخبرينني بكل هذا في جميع الأحوال؟ أنت واهمة لو ظننت أن خافيير قد يلتفت إليك أبداً. كان بمقدوره أن يتزوجك فينال السيطرة على مصرف والدك أيضاً بضمه إلى مصرف هيريرا، لكنه يعتبرك يافعة جداً بالنسبة له».

رقت شفتا لوسيتا، لكنها أجابت ببرود: «ذلك صحيح. قررنا أن ننتظر بضع سنوات إلى أن أنهي تعليمي. لكن بحسب شروط وصية كارلوس، كان يجدر بخافيير أن يتزوج في الحال. ذلك هو السبب الوحيد لاختياره لك».

لم تقوَ غرايس على نكران الحقيقة الجوهرية في تصريح هذه الفتاة الإسبانية، لذا أسرعت عبر الغرفة متوجهة نحو الباب في حاجة ملحة لاستنشاق الهواء المنعش.

قالت غرايس لنفسها مراراً وتكراراً إن ذلك غير صحيح. قد يكون خافيير عديم الرحمة عندما يريد تحقيق مبتغاه، لكن من المستحيل أن يتعمد أن يجعلها تحمل بطفله. لكنه تعمّد كتمان معرفته بالشرط المدرج في وصية جده والمتعلق بإنجاب وريث. تحركت يداها من تلقاء نفسيهما نحو معدتها. إنه ليس رجلاً فظاً، فقد أظهر لها اللطف والشغف أيضاً خلال النصف الأول من فترة زواجهما. أهذا كله خداع ليجعلها تهدأ فتستكين إلى إحساس كاذب بالأمان، ليعود ويطالب بحضانة الطفل؟

فكرت غرايس أن لوسيتا تكذب، فالرجل الذي وقعت في غرامه ليس قادراً على القيام بتصرف متحجر كهذا. حسناً! ليس هناك سوى طريقة واحدة لتهدئة مخاوفها، وهي بأن تسأله مباشرة إذا كان هنالك شرط إضافي في وصية كارلوس، وهذا قبل أن تطلعه على ظنها بأنها حامل.

نظرت غرايس في أرجاء الغرفة باحثة بهلع عن بنيته الطويلة النحيلة، لكنها لم تستطع أن تراه في أي مكان. أدارت عينيها نحو النافذة الواسعة في

الوقت المناسب لتشاهد لوسيتا وهي تلف ذراعها حول خافيير فتعانقه بدلال. بدا خافيير أبعد ما يكون عن الانزعاج، إذ رمى رأسه إلى الوراء ضاحكاً. آه! ذلك أكثر مما تستطيع أن تتحمله، فكتمت تنهيدة ثم ركضت خارجة من الغرفة، ولم تتوقف إلا لإعلام توريس بأنها ليست على ما يرام، وأنها سوف تنسحب إلى غرفتها.

علمت غرايس أن رئيس الخدم سوف يطلع خافيير فوراً على الخبر، لكن ساورها الشك بشكل ما بأنه سوف يهتم، فهو منشغل مع صديقته الإسبانية الفاتنة.

١١ - هروب إلى المجهول

- غرايس! افتحي الباب أو أقسم أنني سأكسره.

ربضت غرايس على طرف السرير تراقب الباب الخشبي الثقيل. إن خافيير لا يمزح، لذا خشيت أن يسقط الباب تحت وقع ضرباته خلال دقائق. هل تجرؤ على إدخاله؟ ماذا يمكنها أن تقول له؟ وكيف تواجهه من دون أن تكشف انكسار فؤادها الذي أدى بها إلى البكاء والنحيب بصمت على الوسائد خلال الساعة الأخيرة الماضية؟

- غرايس! هل أنت مريضة؟ توريس يقول إنك لم تكوني على ما يرام. اللعنة... تكلمي!

تبعت تلك الكلمات موجة من اللعنات أطلقها خافيير بنبرة إسبانية خافتة، تلاها صمت وجيز، ثم سمع صوت شيء ثقيل يرتطم بالباب. بدا لها كما لو أنه سيحطم القصر بأسره. شعرت غرايس بالغضب فيما تعثرت وهي تهب واقفة عن السرير، ومشت بخطوات واسعة نحو الباب. أدارت المفتاح، ثم جذبت الباب ففتحته فيما كان خافيير يوشك على إسقاط ضربة أخرى عليه مستخدماً إحدى كراسي خشب السنديان الصلبة التي تقبع عادة في الممر.

- ماذا تريد؟

- ماذا أريد أنا؟

أخفض خافيير ببطء الكرسي وحملق بغرايس. بدا جذاباً ومثيراً بشكل مدمر، أحست غرايس بالوهن في ركبتيها، فقبضت على إطار الباب حتى تسند نفسها. تشدق خافيير متهكماً: «هل هنالك سبب مقنع لنوبة الغضب هذه أم أنها ببساطة محاولة للفت الانتباه؟»

ردت غرايس بلطافة: «أنت على الأقل تتمتع بالصدق الكافي لتعترف أنني مضطرة لأن أفعل شيئاً ما حتى أجذبك من تحت وقع سحر لوسيتا اليافعة. أخبرني بصراحة خافيير، لماذا لم تتزوجها بكل بساطة عوضاً عن جعلي أخوض هذه المهزلة البائسة؟»

زمجر خافيير بوحشية: «هل أستنتج أنك تقصدين زواجنا «بالمهزلة البائسة؟».

التمعت عيناه بالغضب الشديد فيما دفع بغرايس إلى الخلف في الغرفة، وتابع دفعها حتى ارتطمت رجلاها من الخلف بالسرير ثم سقطت على الفراش. استطاع خافيير أن يلاحظ الدموع على خديها تحت ضوء الغرفة، فضاقت عيناه واستفسر بنبرة أرق: «ما سبب هذا كله، همم؟ هل قالت لوسيتا شيئاً أغضبك؟ أدرك أنها مغيظة أحياناً، لكنها لا تقصد أي أذى».

أطلقت غرايس ضحكة مريرة، وقالت: «أهذا صحيح؟ حسناً! أنت تعرفها أفضل مني. أتظن أنني لم ألاحظ كيف التفت ذراعاها حولك هذه الليلة؟»

قال خافيير بنزق: «أعرف لوسيتا منذ كانت طفلة! أعتقد أنني أنظر إليها كما لو أنها شقيقة صغرى لي لم أحظَ بها يوماً».

- كم هذا لطيف! وهل تأتمن «شقيقتك» على أسرارك، خافيير؟ هل تطلعها على أسرارك الشخصية جداً... كسبب زواجك بي مثلاً؟

أنكر خافيير بقوة قائلاً: «أنا لم أخبر أحداً. الشخص الوحيد الذي يعرف الشروط التي فرضها جدي في وصيته هو محاميه رامون أغويلار».

الشروط! إذاً هنالك أكثر من شرط، ولوسيتا لم تكن تكذب. لاحظت غرايس ذلك مرتعشة.

لا بد أن الشرط النهائي في وصية كارلوس هيريرا هو ضرورة إنجاب خافيير وريثاً قبل أن يحصل على موقعه في رئاسة مصرف هيريرا. فجأة أحست بالارهاق حتى عظامها، قذفت غرايس الاتهامات نحو خافيير: «حسناً! لوسيتا تعرف، وأنت أخبرتها. لا بد أنك فعلت ذلك... كيف

تراها علمت إذاً؟»

أضافت غرايس جملتها الأخيرة حين ظهر خافيير فوقها وقد تراقص لهب الغضب في عينيه الكهرمانيتين.

تابعت بمرارة: «ظننت أنني أستطيع أن أثق بك. لكن يبدو أن أحكامي في ما يتعلق بالرجال تخطئ على الدوام!»

أحست بارتعادة تمر بجسدها، فتراجعت إلى الوراء مبتعدة عنه عندما حاول سحبها بين ذراعيه، وقالت: «لا تلمسني! لا أريد أن تكون لي أية علاقة بك بعد الآن. من الآن فصاعداً سوف أنام في غرفتي الخاصة حتى ننهي هذا الزواج المهزلة».

- لا تحلمي بذلك مطلقاً!

أحبط خافيير محاولتها للنهوض عن السرير، فرفعها عن قدميها ورماها على الفراش بوحشية تكاد لا تخفى. ثم قال: «أنت توجهين لي الاتهامات من دون أن تسمحي لي بقول أية كلمة دفاعاً عن نفسي، لكنني لا آبه البتة لما تظنينه عزيزتي. أنت لي. اشتريتك ودفعت ثمنك، وسوف أسمح لك بالانصراف من سريري عندما أكون أنا مستعداً. وليس قبل ذلك».

همست غرايس من بين أسنانها وهي تقاومه بوحشية: «لا يمكنك أن تفعل هذا. أنت... أيها البربري!»

قال خافيير بضحكة خشنة: «من سيوقفني؟»

التوى فمه في ابتسامة فظة فيما راقب حدقتي عينيها تتسعان. الأمر الوحيد الذي يثق به هو انجذابها إليه، وهو الآن بالذات لا يأبه لأي شيء آخر.

- أنت لن توقفيني غرايس، وكلانا ندرك لماذا.

كيف تراها تستطيع أن تكون ضعيفة إلى هذا الحد بحيث أن لمسة واحدة من يديه كافية لجعلها تشعر بمثل هذا الوهن؟

نعقت غرايس تسأله: «لماذا؟»

لم تظهر أية لمحة من الرقة في عينيه اللامعتين حين رد عليها وعيناه تلتمعان

بوهج الانتصار: «لأنك لا تقدرين على مقاومتي. لأنك تحتاجين إلي».

للحظات قليلة بدا لغرايس كما لو أن قلبها توقف فعلاً عن الخفقان، فلعقت شفتيها متوترة برأس لسانها. راحت تجاهد لكي تبدو باردة ومسيطرة على نفسها فيما فشلت بشكل مريع بذلك. سألته: «ما الذي يجعلك تظن ذلك بحق السماء؟»

رد خافيير ببساطة وهو يلاحظ عينيها تغشيان بالارتباك: «أنت أخبرتني. لعلك لم تقولي ذلك بالكلام لكن تصرفاتك قالته. لماذا إذاً جئت إلى غرفتي في مدريد ورغبتِ بأن نقيم علاقة حميمة؟ كنت متصلبة الرأي بخصوص إقامة علاقة حميمة مع رجل لا تحبينه».

ذكرها خافيير بذلك فيما بدت غرايس فاقدة للقدرة على الكلام، ثم تابع: «لكنك لا تقدرين على نكران الشغف الحاد المحترق بيننا».

آه! كيف استطاعت أن تكون واضحة جداً بمشاعرها؟ لا بد أنه كان يضحك منها في سره خلال الأشهر الماضية. أحست بالاذلال التام، فارتعدت منتفضة. استجمعت شجاعتها، وأجبرت شفتيها على إظهار ابتسامة.

- أنت محق خافيير. أنت قلت بنفسك إن الشغف القائم بيننا إحساس قوي جداً، وأنا ذهبت إليك يومها لأنني قررت أنه حان الأوان لأتوقف عن التصرف كراهبة. قررت الاستفادة من مهارتك المعروفة. إنها سمعة تستحقها جيداً.

ردّ خافيير بلطافة، لكن ابتسامته لم تخدعها إذ قال: «يسعدني أن هذا ما تظنينه».

أحست غرايس بالغثيان يطوف في داخلها، فوضعت يديها لتمنعه عن ذلك. بالرغم من كل شيء عرفته الليلة فهي ما تزال تحبه. بالرغم من أن هذا الإدراك جعلها تشك في سلامة عقلها، إلا أنها لا تحتمل أن يتصرف معها خافيير بغضب وقوة، فيحول كل ما وجدته جميلاً في علاقتهما إلى عمل انتقامي بدائي.

فكرت بهلع: ماذا عن الطفل؟ بعد كل ما أخبرتها به لوسيتا، لم تجرؤ على إخبار خافيير أنها قد تكون حاملاً بطفله. إنها بحاجة إلى تمضية بعض الوقت بمفردها لتتعمق بحقيقة حبلها، قبل أن تواجه خشيتها من أنه سيرغب بانتزاع الطفل منها حين يطلقها.

توسلته غرايس: «لا أرجوك. لا تجعلني أكرهك».

زمجر خافيير بوحشية: «أتظنين أنني أهتم؟ الحب... الكراهية... إنهما سيان بالنسبة إلي».

لكنه لاحظ التماع الدموع في عينيها، فأطلق لعنات طويلة وقاسية.

- يا إلهي! غرايس، ما الذي تفعلينه بي؟.

قفز ناهضاً على قدميه. أما عيناه فالتمعتا بالمقت والغيظ.

- لا يمكن أن تكرهيني أكثر مما أكره نفسي. لطالما عرفت أنني شخص غير محبوب... سمعت ذلك مرات عديدة.

أخبرها خافيير ذلك بنبرة عادية خالية من الأحاسيس، كذبتها ملامح الألم البادية في عينيه. ثم أضاف بخشونة: «كيف تراني أملت بأنك مختلفة عن الآخرين، وبأنك رأيت فيَّ شيئاً ليس بارداً ومريراً؟»

- خافيير!

أحست غرايس أن البؤس البادي على تعابير وجهه يمزق قلبها، فمدّت يدها نحوه. لكن يدها سقطت إلى الوراء ضعيفة الحيلة حين تصلب خافيير واستدار مبتعداً عنها. قالت: «أنا لم أقصد أبداً... أنا لا أظن أنك من دون قلب...».

توقفت عن الكلام وغشيت عيناها عندما تذكرت تلميحات لوسيتا اللاذعة، حين قالت لها إنه تعمد جعلها تحبل لأنه بحاجة إلى وريث.

قال لها ببرود: «إذاً أقترح عليك أن تراجعي رأيك بي، عزيزتي. لأنني عديم الرحمة تماماً كأسلافي الأربعة الذين عاشوا هنا في قصر الأسد.»

أطلق خافيير ابتسامة قاسية وقال: «هل أخبرتك أن كارلوس رفض السماح لوالدي بزيارة جدتي حتى وهي على فراش الموت، مع أنها توسلته

لكي ترى ابنها؟ كان فرناندو ابنها الوحيد، لكنه عارض رغبات جدي فتزوج من والدتي، لذا طرده من القصر نهائياً. منذ وصولي إلى هنا وأنا صبي نحيل تعلمت أن القوة هي كل شيء، أما الحب فلا قيمة له».

أحست غرايس كما لو أن يداً باردة من الخوف والهلع تطبق على قلبها، فهمست: «وهل ما زلت تؤمن بذلك، خافيير؟ هل أنت مستعد حقاً لأن تفعل أي شيء لتستلم السيطرة المطلقة على مصرف هيريرا؟»

أجابها خافيير وهو يسير متجهاً نحو الباب: «أنت تعرفين الجواب على ذلك. لا تظهري الدهشة إلى هذا الحد. عزيزتي، عرفت جيداً ما الذي ستواجهينه حين قبلت بهذا الزواج، وما زالت أمامك ستة أشهرأو ما يقاربها كزوجة لي. عليك أن تعتادي على الفكرة، لأننا عقدنا اتفاقاً ولن أسمح لك بالمغادرة حتى تسددي الجزء المتعلق بك منه».

تلك الليلة نامت غرايس نوماً متقلباً متشنجاً، ثم استفاقت لتجد نفسها وحيدة في السرير الضخم. لم تكن لديها أدنى فكرة أين أمضى خافيير ليلته. لكن حين ضربتها موجة من الغثيان استوجبت منها رحلة طارئة إلى الحمام، شعرت بالامتنان لعدم وجود خافيير حتى يسألها عن سبب توعكها.

لا يمكنها البقاء في هذا القصر وهي تعلم أن هذا الكائن الحي الحساس الذي ينمو في أحشائها، هو آخر دفعة في حساب هذا العقد التي أجرته مع خافيير. إن مصلحة طفلها وتربيته ليستا مسألة قيد المناقشة والبحث. ما دامت تمتلك نفساً وروحاً في جسدها سوف تحارب لأجل الحصول على حضانة وريث آل هيريرا.

طفلها سوف يتربى بأمان معها هي التي عرفت الحب غير المشروط، على العكس من والده الذي حرم من العاطفة خلال سنوات عمره الأولى.

أحست غرايس أن الدوار بدأ يزول عنها، فرمت بسرعة القليل من أغراضها إلى الحقيبة، بينما حرصت على أن توضب فقط الأغراض التي أحضرتها معها من إنكلترا ولا شيء مما اشتراه لها خافيير. عندما تسللت إلى الطابق السفلي بدا القصر هادئاً على غير عادة، لكنها ما إن دخلت غرفة

الطعام حتى توقفت تماماً لدى رؤيتها للوسيتا فاسكيز.

استفسرت غرايس بحدة: «أين خافيير؟»

وهي مدركة لشحوبها مقارنة مع جمال هذه الفتاة الإسبانية الرائعة الجذابة.

قالت لوسيتا بتجهم: «انطلق مسرعاً إلى مكان ما مع لوكا بعد أن ألقى علي محاضرة ملؤها التأنيب. هل كان عليك أن تدخليني في عراككما السخيف؟»

أطلقت غرايس ضحكة خشنة، وقالت: «أنت أدخلتِ نفسك. إذا كان خافيير غاضباً منك، فلا تلومي إلا نفسك. حان الوقت لكي يقول لك أحدهم بأن تنضجي».

قطعت كلامها وعضت على شفتها عندما حدقت لوسيتا مشككة بحقيبة أغراضها.

استفسرت المرأة اليافعة بنبرة حلوة عذبة: «آه، يا إلهي! أنت لست راحلة. أليس كذلك؟»

غمغمت غرايس: «أنا ذاهبة لزيارة والدي... لبضعة أيام».

فيما رفضت أن تعترف أن لا نية لها بالعودة.

التمعت عينا لوسيتا السوداوين فجأة وقالت: «أحقاً؟ بعد أن تبتعدي عن طريقي، سوف تسنح لي الفرصة لأتصالح مع خافيير».

رمت رأسها إلى الوراء بحيث تطايرت خصلات شعرها المجعدة حول كتفيها، وتابعت تقول: «اسديني خدمة، ولا تسرعي بالعودة».

تمسكت غرايس بكرامتها، فأخرجت مفاتيحها ومشت مسرعة خارج القصر، لكنها أحست بالدموع تغشى عينيها وهي تركض نزولاً على الدرج. كانت يائسة للابتعاد من هنا قبل عودة خافيير، لذا انزلقت وراء مقود السيارة الرياضية الفاخرة التي كان قد اشتراها لها وأدارت المحرك.

إن الثلوج التي تغطي عادة قمم جبال السيرانيفادا لم تصل إلى مستوى القصر، لكن الأمطار الغزيرة كانت تعيق رؤيتها، بالرغم من أن مسّاحات

الزجاج الأمامي كانت تعمل بسرعة مزدوجة. بعد دقائق على مغادرة غرايس للقصر بدأت تحاول يائسة أن تقطع الطريق المنحدرة الملتوية. قبضت بقوة على المقود، فيما تذكرت أول مرة قادت فيها سيارتها إلى قصر الأسد.

تساءلت غرايس فيما انهمرت الدموع بغزارة على وجهها، لو أنها علمت حينها أنها سوف تخسر قلبها لصالح الدوق المتصلب الوجه، هل كانت ستأتي؟ أما الجواب فهو نعم بكل صراحة. كانت مستعدة لأن تفعل أي شيء من أجل مساعدة والدها، أما الآن فيجب أن تحمي طفلها.

ما إن استدارت حول المنعطف التالي، حتى رأت سيارة متجهة نحوها، ولصدمتها الكبرى أدركت أن الرجل خلف المقود هو خافيير. أصابها الذعر فضغطت على دوّاسة الوقود، بحيث انطلقت السيارة الرياضية القوية بسرعة إلى الأمام، فانحرفت الإطارات على الطريق المبللة بالماء، وفجأة بدأت غرايس تندفع بعنف نحو الأشجار التي تقف حاجزاً بين الطريق والهاوية السحيقة.

راحت تندفع بسرعة قصوى ولم تقوَ على التوقف، فصرخت قبل أن تغوص في السواد والظلام.

* * *

- غرايس، افتحي عينيك.

سمعت غرايس مجدداً هذا الصوت غير المرتبط بشخص محدد، فأجبرت نفسها على فتح جفونها لتحدق إلى الأعلى نحو وجه غير مألوف.

- من...؟

همست غرايس ذلك بوهن، فابتسم الشخص الغريب برقة، وقال: «تعرضتِ لحادث سيارة، لكن كل شيء سيكون على ما يرام. إن زوجك هنا».

بالكاد سمعت غرايس كلمات الطبيب التي بدت لها مبهمة، وراحت تومض في ذهنها صور متكسرة: الأشجار تتسارع باتجاهها بسرعة لا تصدق، صوت الزجاج الأمامي يتكسر... ملأها شعور بالهلع التام وقالت:

«طفلي. . . ؟»

سمعت تأوهاً متقطعاً من الجانب الآخر للسرير، لكن جل انتباهها كان مرتكزاً على الطبيب وهو يهز رأسه ببطء.

- أنا آسف. كنت في المراحل الأولى للحمل، وقد بذلنا كل ما بوسعنا. أدرك أن ذلك لا يواسيك الآن بالتحديد، لكن جراحك خفيفة نسبياً. وليس هنالك من سبب يمنعك من أن تنجبي طفلاً آخر في المستقبل.

ربت الطبيب على كتفها بلطف ونهض، ثم تمتم قائلاً لخافيير: «سوف أدعكما بمفردكما الآن. زوجتك محظوظة جداً، فالاشجار عملت كحاجز منع سيارتها من السقوط والتحطم على جانب الجبل. جراحها سوف تشفى، لكن لا بد أن خسارتكما لطفلكما أمر مدمر بالنسبة إليكما».

أغمضت غرايس عينيها، فتسربت الدموع من تحت جفنيها. أحست كما لو أن قلبها قد انتزع من مكانه، ورغبت في البقاء بمفردها حتى تبكي خسارتها.

هل رحل خافيير؟ فتحت غرايس عينيها فلاقت نظراته الغامضة. بدا وجهه كما لو أنه منحوت من الرخام، ولاحظت وهي تحدق به أن الغضب يكاد يقفز من عينيه. فهمست: «أنا آسفة!»

بالرغم من أنها لم تعلم لماذاهي آسفة. إنها تأسف على نفسها في الحقيقة وعلى طفلها الذي خذلته بشكل مريع.

انهمر المزيد من الدموع من عينيها، فيما راقبها خافيير من دون أن يبدو أي وميض من الاحساس على وجهه. ثم قال بصوت خشن: «أنت لم تنوي إطلاعي على خبر حملك بهذا الطفل. أليس كذلك؟»

أجابته غرايس بمرارة: «كيف يمكنني أن أفعل ذلك بعد أن علمت من لوسيتا أنك تعمدت أن تجعلني أحمل بولدك، و أنك كنت تنوي أن تأخذه. . . أو تأخذها مني بعد طلاقنا».

تلعثمت غرايس وقالت مجبرة نفسها على المتابعة: «أنا أعرف بخصوص الشرط النهائي في وصية جدك».

زمجر خافيير وهو يبذل جهداً لإبقاء صوته منخفضاً: «يا إلهي! ليس هنالك شرط نهائي. إن ما سمعته واخترت تصديقه هو نتاج مخيلة حقودة مكايدة لفتاة مدللة أصبحت مهووسة بي أكثر مما تصورت».

حدقت غرايس به باستغراب، وهي غير قادرة على استيعاب ما يقوله لها فقالت: «لكن لوسيتا. . .»

- أخبرتك برزمة من الأكاذيب. أنا لم أخبرها أبداً بسبب زواجنا، لكن جدي ووالدها كانا صديقين قديمين، فسمعت بالصدفة كارلوس وهويخبر ميغيل عن شرط الزواج الذي أضافه إلى وصيته. أما بقية ما قالته فهو مبتكر.

- لكنها بدت مقنعة جداً.

همست غرايس بذلك فيما استوعبت فداحة ما فعلته؛ حرمت خافيير من فرصة الدفاع عن نفسه، وعوضاً عن ذلك استمعت بكل بساطة إلى فتاة مراهقة تشعر بالغيرة منها. ها هي قد دفعت ثمن عدم ثقتها بخافيير فخسرت طفلها الذي لم يولد بعد. من النظرة التي ظهرت في عيني خافيير، أدركت أنها خسرت أيضاً أية فرصة لأن تربح حبه، وهذا الادراك لا يحتمل. لذا أدارت رأسها بعيداً عنه.

- غرايس. . . !

النبرة اللطيفة غير المتوقعة مزقت قلب غرايس تمزيقاً فرفضت أن تنظر إليه. إنها غير قادرة على تحمل المقت الذي ستراه في وجهه. خبأت وجهها بيديها، وقالت: «ارحل، خافيير! فقط ارحل، ودعني لوحدي».

١٢ - سيدة القصر

وقف خافيير أمام باب غرفة نوم غرايس، فأصغى إلى صوت نحيبها المكبوت. فكر بوحشية أن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر. مضت ستة أسابيع منذ أن أعادها من المستشفى إلى المنزل وما زال الأمر على حاله: هو يتربص في الممر خائفاً من الدخول والمجازفة برفضها، بينما تقبع هي وحيدة باكية.

إنه مستعد لفعل أي شيء حتى يراها تبتسم مجدداً. إن تعاستها تمزقه إرباً، والأسوأ من ذلك معرفته أنه هو المسؤول عن دموعها. قال لنفسه بكآبة إنه ما كان يجدر به أن يتزوجها. كان يجدر به أن يتبع غريزته الأولية فيطردها من القصر حين زارته لأول مرة لتدافع عن قضية والدها، لا أن يقع تحت إغراء ابتسامتها الخجولة المحيرة.

إدراكه للسهولة التي سحرته بها جعله يشعر بالرعب. لطالما تمكن خلال سنوات عمره الستة والثلاثين من فرض سيطرة حديدية فولاذية على مشاعره، ولطالما تفاخر بكونه محصناً ضد الحيل الأنثوية. لكن بشكل ما، ومن دون أن يدرك ذلك، تسللت غرايس خلف دفاعاته إلى أن أصبحت كل ما يهمه في حياته. إن السماح لها بالرحيل قد ينتزع قلبه من مكانه. تقبل خافيير ذلك وهو يمسك بمقبض الباب.

لكنه لا يستطيع الابقاء على حمامته الرمادية الصغيرة أسيرة قصره لفترة أطول.

خرجت غرايس من الحمام المتصل بغرفة النوم، فتوقفت فجأة لدى رؤيتها لخافيير واقفاً عند طرف سريرها. لاحظت بعبوس أنه فقد بعض

الوزن؛ أصبح وجهه نحيلاً ذا فجوات عميقة عند جانبي فمه، لكنه ما زال أروع رجل رأته في حياتها، فأحست بذاك الألم المعهود حول قلبها.

عاملها خافيير بلطف بالغ خلال الأسابيع الماضية، فتحت تحفظه البارد أيقنت غرايس أنه يمتلك قلباً حنوناً. وبالرغم من معاملتها الفظة له حين لم تثق به، لم يلمها يوماً على خسارة طفلهما. لعله لم يرَ أي داع لذلك في حين أنها تلوم نفسها بنفسها.

إدراكها لحملها كان أمراً جديداً عليها. بالكاد تسنى لها الوقت لقبول ذلك حتى انتزعت منها سعادتها. بكت غرايس إلى أن أحست كما لو أن قلبها سينفجر على خسارة هذه الحياة الصغيرة التي حملتها لفترة وجيزة. أما خلال الليالي القليلة الماضية، فانهمرت دموعها بدافع اليأس، لأنها واجهت حقيقة أن خافيير لن يحبها أبداً.

وجه خافيير لغرايس نظرة وجيزة ذابلة، فيما تحركت هي متجهة نحوه. أعاد انتباهه إلى الصور المنثورة على السرير، وقال: «أستنتج أن المرأة في الكرسي ذي العجلات هي والدتك؟!».

تكلم بهدوء وهو يحدق بالابتسامة الساكنة البادية على وجه المرأة التي أنعمت على غرايس بجمالها الرقيق، ثم تابع: «لم أدرك أنها لم تكن قادرة على السير».

أومأت غرايس ثم التقطت إحدى الصور الفوتوغرافية، وقالت: «لسوء الحظ، فقدت والدتي القدرة على استخدام رجليها خلال المراحل الأولى لمرضها. لكن حتى خلال أسوأ لحظاتها لم تتوقف عن الابتسام».

أخبرته غرايس بذلك وصوتها يرن بالحب والفخر تجاه والدتها.

- هل اعتنيت بها في المنزل؟

- نعم. في بادئ الأمر تدبرنا والدي وأنا الأمر بنفسينا، لكن عندما أصبحت تتألم كثيراً، أمّن لها والدي ممرضات مختصات للعناية بها على مدار الساعة. كان ذلك مكلفاً بالطبع، كذلك كانت الرحلات إلى لورد الفرنسية والأماكن الأخرى، حيث كانوا يعدونه بالعلاجات العجائبية. ذلك كل ما

تبقى لوالدي أن يأمل فيه... وبالطبع لم ينفع أي منها.

أطلعته غرايس على ذلك بحزن، وتابعت: «لكنه أحبها إلى درجة جعلته مستعداً لأن يفعل أي شيء لإنقاذها... حتى سرقة الأموال منك».

أضافت غرايس جملتها الأخيرة بصوت أبح، قبل أن تضيف: «بالرغم من كل ما حدث، أنا لا أستطيع لومه. إنها حب حياته... لكنني لا أتوقع منك أن تفهم».

سألها خافيير بخشونة: «هل تظنين ذلك لأنني لم أختبر الحب من قبل ولا أعترف به، كما أنني لا أحترمه لدى الآخرين؟»

وجهت غرايس له نظرة مدهوشة: «أنت أخبرتني بنفسك أنك لا تؤمن بالحب».

قال: «يا إلهي! تفوهت بالعديد من الأشياء اللعينة الغبية. هل سترمينها كلها في وجهي من جديد؟ إن أي شخص ينظر إلى صور والديك لا يمكن إلا أن يلاحظ الحب الذي تشاركا به. لا بد أن موت والدتك دمر والدك. لو أنني أصغيت إليك عندما جئت إلي، لعلني كنت سأفهم أسباب تصرفه، وسأشعر بالتعاطف معه، عوضاً عن إصدار الحكم الصارم وإجبارك على الزواج مني».

أدار خافيير وجهه، فكادت غرايس تبكي بسبب قوة المشاعر البادية في عينيه.

همست برقة: «لم يكن الأمر هكذا. كان الخيار بيدي، وأنا اخترت الزواج بك».

حدق خافيير بالصورة، ثم دفعها نحوها قائلاً: «أنت وافقت على عرضي فقط بدافع الحب لوالدك. لم يكن ذلك ما تريدينه. أنت اعتبرت زواج والديك السعيد نموذجاً ترغبين به لمستقبلك، لكن ما الذي أعطيتك إياه أنا؟ إنه عقد عمل خال من المشاعر، وتوقعي منك بأن تقسمي بعهود مهمة جداً بالنسبة إليك، وأنت تعرفين أنها أكاذيب. أنا راقبت وجهك في الكنيسة غرايس».

قال خافيير ذلك بصوت أبح قبل أن يتابع: «أدركت كم آلمك أن تقولي هذه الكلمات لي أنا عوضاً عن قولها للرجل الذي تحبينه وتأملين بتمضية بقية حياتك معه».

تمشى نحو الموقد الحجري الضخم، فحدق نحو اللهب المتراقص في داخله. وفجأة شتت الصمت بينهما، فقال: «يجدر بك العودة إلى إنكلترا. أنت حزينة وبشرتك باهتة وشاحبة جداً، لذا أنت بحاجة إلى تمضية بعض الوقت مع الأشخاص الذين يحبونك».

- فهمت!

أحست غرايس بشق من الألم يقطع جسدها، لكنها رفضت أن تسمح له برؤية ألمها. ليس بمقدوره أن يوضح لها بشكل أبسط وأوضح أنه لا يحمل أية مشاعر تجاهها. فكرت بذلك وهي تمسح دموعها عن وجهها بنفاد صبر. لعله سئم من رؤيتها تبكي على الدوام. عضت على شفتها السفلى حتى شعرت بطعم الدم. أجبرت صوتها على أن يبدو خالياً من المشاعر، فسألت: «متى... تريدني أن... أغادر؟»

أجابها خافيير وهو يهز كتفيه: «حين يلائمك الأمر. غداً، إذا أحببت».

أحست بلا مبالاته كالسكين المغروز في صدرها، فخنقت تنهيدة كادت تخرج منها. وفيما وقفت بصمت متمنية أن يذهب ويتركها وحيدة مع بؤسها، تكلم خافيير مجدداً قائلاً: «غرايس... أريدك أن تعلمي أن الأشهر القليلة المنصرمة التي عشت فيها هنا في القصر كانت الأسعد في حياتي... باستثناء الأسابيع القليلة الأخيرة، التي كانت كالجحيم».

أضاف ذلك بنبرة هامسة غير مصطنعة.

كان خافيير ما يزال يحدق بالنار، فيما أدار وجهه بعيداً عن وجهها كما لو أنه يتعمد تجنب نظراتها، لكن اعترافه المفاجئ عنى كثيراً بالنسبة إلى غرايس. فطالبته وهي تسير نحوه: «في هذه الحالة، لماذا ترسلني بعيداً؟»

تعثرت وهي تستعجل للاقتراب منه فوطأت على ذيل قميص نومها. تمتمت لعنة وهي تجمع القماش بيدها ثم تقف أمامه.

قالت بجدة: «ما زال هنالك ما يزيد عن الأربعة أشهر من عقد زواجنا، وأنا مستعدة تماماً لاحترامها. اعتقدت أنك تحتاجني هنا حتى تقنع أفراد مجلس إدارة المصرف أنك ما عدت تعيش حياة الرجل الماجن اللعوب، بل أنت رجل متزوج سعيد».

للحظة لم يقل خافيير شيئاً، بل ببساطة أزلق أنامله داخل شعر غرايس فداعب الخصل الحريرية وصولاً إلى خصرها، ثم قال: «أنا استقلت من منصبي في مصرف هيريرا، وتخليت عن كل حقوقي به. من الآن فصاعداً سيحصل نسبي لورنزو بيريز على السيطرة التامة».

- لكن...! المصرف هو كل شيء بالنسبة إليك... اهم شيء في الدنيا.

من فرط اهتمامها لأن تفهم ما يجري، قبضت غرايس على مقدمة قميصه فحدقت إلى الأعلى نحوه، وتابعت تقول: «لست مضطراً إلى التخلي عنه الآن، في حين أنك أوشكت على ربح مكانك».

أغمضت عينيها وقد أشرق عليها فجأة الفهم، ثم قالت وقد تجمعت الدموع في حلقها: «لهذا السبب ستعيدني إلى إنكلترا. أليس كذلك؟ لا يمكنك أن تنتظر أربعة أشهر إضافية لتفسخ زواجك بي. لابد أنك تكرهني كثيراً بما أنك مستعد لخسارة حقك بالولادة، عوضاً عن البقاء متزوجاً مني لأشهر قليلة قصيرة».

انفجر خافيير نافياً: «بالطبع أنا لا أكرهك!»

قبض على كتفيها وأجبرها على النظر إليه، وقد رقت نظراته لدى رؤية البؤس المذل في عينيها، فتابع: «كيف يمكنك أن تظني ذلك أبداً؟»

قالت غرايس من بين دموعها: «الذنب يقع علي لخسارة الطفل. لو أنني وثقت بك أكثر، عوضاً عن الاصغاء إلى أكاذيب لوسيتا، لبقيت حاملاً بطفلنا».

أطلق خافيير ابتسامة خشنة وقال: «ظننت أنني أريد هذا الطفل فقط لإتمام شروط وصية جدي. حتى أنا لست عديم الرحمة إلى هذا الحد عزيزتي، لكن اعتقادك أنني قادر على قسوة من هذا النوع هو دليل على رأيك بي.

حسناً! بعد الأسلوب الذي عاملتك به، أنا أستحق كرهك».

بدا وجهه كالقناع المشدود فيما جاهد للسيطرة على أحاسيسه. سوف يسنح له ما يكفي من الوقت بعد رحيل غرايس حتى يتعامل مع اليأس الذي يهدد بالسيطرة عليه. جذبها إلى صدره، فأحس بالدموع تبلل قميصه، فتوسلها بصوت أبح: «لا تبكي غرايس. حان الوقت لإنهاء هذا الجنون. أنت حرة لترحلي إلى منزلك... إلى والدك، وأعدك أن أنغوس آمن من الملاحقة القانونية. لو كنت في مكانه واقفاً أراقب بعجز معاناة المرأة التي أحب، لفعلت ما فعله بالضبط».

اعترف خافيير بذلك بصوت خافت جداً إلى درجة أن غرايس اضطرت إلى ضغط جسدها عليه حتى تسمعه. ثم تابع: «أنا أسامحه عزيزتي، وآمل أنك ستسامحيني يوماً ما لأنني سببت لك الأذى».

- أنت لم تؤذني أبداً... أقله، ليس عمداً.

قالت غرايس ذلك بحزم فيما ألقت خدها على صدره وأصغت إلى ضربات قلبه غير المنتظمة. إنها قادرة على البقاء هكذا إلى الأبد، لكنها على الأرجح تحرجه. أقرت بذلك بأسف، فهي تعلم كم يكره خافيير إشارات العاطفة.

استنشقت نفساً عميقاً وخرجت من بين ذراعيه لتتمكن من رؤية وجهه بوضوح. أحست غرايس أنه كرّمها واحترمها باعترافه أنه يتعاطف مع والدها، لذلك يجدر بها أن تكافئ صدقه بصدقها معه.

لطالما اعتقد خافيير طيلة حياته بأنه يتمتع بنقص أو عيب ما. كانت والدته قد أخبرته أنه غير محبوب، لذلك لا عجب أنه قام ببناء سور دفاعي حول قلبه. كان الغرور قد دفع غرايس إلى نكران مشاعرها تجاهه، وهي تصرفت بفظاظة معه حين جعلته يعتقد أنها لا يمكن أن تحبه أبداً. كم كان مخطئاً بظنه! تمتمت وهي ترفع ذقنها حتى تلاقي نظراته بكل شجاعة: «الذنب ليس ذنبك لأنك لا تحبني، فأنت أوضحت منذ البداية بأنك لن تحبني أبداً. الذنب ذنبي أنا. عندما أتخيل فكرة التخلي عنك... وعدم رؤيتك مجدداً...

ذلك يفطر قلبي».

تجاهلت نظرة عدم التصديق والاندهاش البادية في عينيه، فتابعت كلامها: «أنا لا أعتقد أنك بارد ومتحجر القلب، خافيير. فأنت تتحلى بالقلب الحنون وبالحب في داخلك كأي رجل آخر... وربما أكثر، لكن طفولتك علمتك أن تدفن مشاعرك وتقفل عليها في داخلك بانتظار المرأة المناسبة التي تدير المفتاح فتحررها».

فجأة لم تعد غرايس قادرة على المتابعة، فأدارت وجهها بعيداً عنه، وسالت دموعها نزولاً على وجهها. قالت بصوت فيه غصّة: «أتمنى لو كنت أنا تلك المرأة، لأنني أحبك من أعماق قلبي. كنت محقاً حين خمّنت سبب قدومي إليك في مدريد. لم أقوَ على مقاومتك... لكنني ما كنت لأرضى بإقامة علاقة معك لو لم أكن أحبك».

- لماذا إذاً كنت تنوين الرحيل عني؟

بعذاب يدفعه الاحباط أدارها خافيير حول نفسها وهزّها بكل معنى الكلمة، قبل أن يسحبها إلى صدره الصلب. ثم غمغم بصوت أجش: «يا إلهي! عندما فتحت باب السيارة بالقوة ووجدتك مرمية فوق المقود...»

أحس خافيير بارتعادة تعبر جسده، فأغمض عينيه لفترة وجيزة، فيما أحرقت الدموع مؤخرة حلقه. آخر مرة بكى فيها هي حين كان في الثامنة من عمره، حيث جلس متقوقعاً تحت عربة والدته النقّالة، بعد أن أقفلت الباب عليه وتركته وحيداً وجائعاً. منذ ذلك الحين تعلم السيطرة على مشاعره، فذلك نظام دفاع عن النفس ضد التعرض للأذى. لكن غرايس استطاعت أن تخترق روحه، فمزقت دفاعاته واحدة تلو الأخرى، وتركته مكشوفاً على طبيعته. إن ذكرى تلك اللحظات القليلة التي تلت الحادث، حين ظن أنه خسرها إلى الأبد، كانت أقوى من أن تحتمل. لذا دفن خافيير وجهه في شعر غرايس، فتسربت الدموع من تحت رموشه. أنّ خافيير وهو يمسح وجهه بعنقها، ثم قال: «رفضت الحب طيلة حياتي إلى أن اعتقدت فعلاً أنني محصن ضده. لكنني أحبك غرايس أكثر مما ظننت أن بإمكاني أن أحب».

مرّر خافيير أنامله في شعر غرايس، فأحنى وجهها حتى يتمكن من التحديق إلى عينيها. توقدت عيناه الكهرمانيتان بأحاسيس قوية، فتساءلت غرايس كيف تراها استطاعت أن تتخيله بارداً. بدا كما لو أنه يعوض عن كل السنوات التي أقفل فيها على مشاعره فحبسها في داخله.

وقفت على أطراف أصابع قدميها حتى تطال وجهه، فأمسكته بين يديها وعانقته بكل الحب المكبوت الذي أبقته مخفياً لفترة طويلة جداً. أحست به يتردد قبل أن يغمرها، ببطء وعذوبة، بمداعبة جعلتها ترتعش بين ذراعيه.

أقر خافيير عندما رفع رأسه: «في بادئ الأمر رحت أخدع نفسي فأقول إنني مسيطر على الوضع. لم أقوَ على منع نفسي من ملامستك، لكنني اقنعت نفسي أن هذا فقط مجرد انجذاب قوي بيننا».

التوى فمه في ابتسامة آسفة وتابع: «إنه أفضل انجذاب على الإطلاق. أنا لم أختبر أبداً شغفاً مماثلاً وسعادة مماثلة في حياتي كلها. لكني لاحقاً اضطررت إلى إجبار نفسي على الابتعاد عنك خشية أن تدركي أنت كم أنا ضعيف حيالك».

همست غرايس بخجل: «ظننت أن هذا هو أسلوبك في إفهامي أنك لا تريدني سوى للفراش فقط ولا شيء أكثر. لطالما تقت لأن تعطيني إشارة صغيرة ما تثبت أنني أعني شيئاً بالنسبة لك. ولكم شعرت بالغيرة من الإلفة التي تشاركت بها مع لوسيتا. أنا آسفة لأنني صدقتها هي عوضاً عن الوثوق بك».

غمغمت غرايس ذلك وهي تشعر بالحزي والأسف، لكن خافيير عاد ورفع ذقنها حين أخفضت وجهها.

- لم أفعل سوى القليل حتى أكتسب ثقتك عزيزتي. لوسيتا لا تعني لي شيئاً. أنت هي المرأة الوحيدة التي أحببتها يوماً، وأقسم أنني سوف أحبك لبقية حياتي. أنا فقط آسف لأن الأمر تطلب أن أكاد أخسرك حتى أقر بالواقع.

عانقها خافيير مجدداً بشغف حاد، لم يترك لغرايس مجالاً للشك أبداً بعمق

حبه لها. لفت غرايس ذراعيها حول عنقه وتعلقت به. أما هو فرفعها فجأة بين ذراعيه، ومشى بخطوات واسعة خارج غرفتها فعبر الممر نحو غرفة النوم الرئيسية، حيث وضعها في وسط السرير الضخم ذي الأعمدة الأربعة.

- هذا هو المكان الذي تنتمين إليه.

أغاظها خافيير بكلماته، لكن على الفور تلاشت ابتسامته فتحولت تعابير وجهه إلى ما يدل على التوق والشوق التامين. فقال: «قولي لي إن هذا حقيقي غرايس، وليس مجرد وهم يرسمه لي يأسي الحاد. إذا تركتني الآن فسوف تأخذين قلبي معك».

ركعت غرايس على السرير ووعدته بنعومة: «أنا لن أغادر إلى أي مكان. قصر الأسد هو منزلي، وأنوي أن أعيش هنا معك ومع الأولاد الذين سننجبهم يوماً، لبقية حياتي».

اضطرب صوتها قليلاً عندما تذكرت الحياة الحساسة السريعة العطب التي خسرتها. إنها ليست مستعدة لتفكر بطفل آخر بعد، لكنها تأمل أن تملأ القصر بأطفال خافيير حتى لا يشعر بالوحدة مجدداً في المستقبل.

مدت يدها نحوه، وهمست قائلة: «أريد أن أظهر لك كم أحبك فعلاً. لقد عنيت كل كلمة من العهود التي قطعتها يوم زفافنا. لعلني لم أدرك ذلك حينها، لكن روحي أدركت بأنك توأمها، ولن أتركك مجدداً، حتى ليوم واحد».

أمسكت به قريباً من جسدها ملامسة بشرته الحريرية برؤوس أناملها.

- أنا أحبك، غرايس.

تحرك ليغرقها في عناق محموم محمل بلهفته واشتياقه لها. رفع رأسه بعد قليل ليقول: «لا تتركيني أبداً».

الحساسية الصادقة البادية في صوته جعلت قلبها ينقبض. إن جراح طفولته أثرت بعمق فيه، وقد يستغرق الأمر سنوات من التطمين. سوف تخبره بحبها كل يوم، بالكلام وبالفعل، حتى يعرف كم يعني بالنسبة إليها.

لف خافيير ذراعيه حولها وأمسكها قريبة منه، مداعباً شعرها بيده

المرتعشة نوعاً ما. ثم همس: «أنت حياتي، عزيزتي. ولن أدعك ترحلين أبداً».

ضمته غرايس بعمق أكبر، وقد أحبت الوهج الرقيق الذي ظهر في عينيه، فقالت: «أكنت ستعيدني إلى أنكلترا حقاً؟»

- حتماً. وكنت سأطلب الطلاق فوراً.

أحكم قبضته عليها وهو يقول ذلك، فيما أطلقت غرايس شهقة مسموعة. تابع يقول: «... وما إن نصبح غير مرتبطين بعقد الزواج الجهنمي ذاك. كنت أنوي أن أنتظر لفترة معقولة من الزمن... لنقل، أسبوعاً واحداً قبل أن أبدأ بتطبيق مخططي».

- أيّ مخطط؟

سألته غرايس منقطعة الأنفاس، فيما تلاشت نبضات قلبها لدى رؤيتها اللمعان الماكر في عينيه.

- مخططي بأن أسعى وراءك وأتودد إليك بشكل لائق؛ أدعوك إلى تناول العشاء على ضوء الشموع، وأتصرف بشكل ساحر جداً يجعلك غير قادرة على رفضي عندما أطلب منك الزواج بي وقضاء بقية حياتك معي.

تكور فم غرايس وقد خاب ظنها: «آه! أنا أحب فكرة تناول العشاء على ضوء الشموع معك لكنني لا أهوى الطلاق، لذا يجدر بنا أن نبقى سوياً بكل بساطة».

- أعدك بذلك.

أقسم خافيير، وأمضى الدقائق القليلة التالية مظهراً لها بأساليب عديدة متنوعة وممتعة تماماً كم ينوي البقاء مقرباً منها.

أخيراً أفلتت غرايس نفسها من بين ذراعيه وجلست مستقيمة على السرير فقالت بجدية: «أنا لا أريدك أن تتخلى عن موقعك في رئاسة المصرف. إنه مهم جداً بالنسبة إليك».

أجابها خافيير بحدة: «لا شيء مهم بقدرك أنت. فأنا لا أريد أن تساورك أية شكوك حيال سبب زواجي بك».

جذبها بقوة لتعود إلى ذراعيه وقال: «لورنزو مسرور لأننا نذير المصرف معاً. لكن القرار يعود إليك، عزيزتي. أنا... كيف سأقولها...؟ كالمعجون بين يديك».

استنشق خافيير نفساً حاداً حين تتبعت غرايس بيدها حدود فكه. تمتمت ببراءة: «أنت لا تبدو لي كالمعجون».

الخاتمة

عند حلول ذكرى زواجهما الأولى قطف خافيير الورود لغرايس من حدائق القصر، لكن الأشواك جرحت يديه، فأصرت زوجته على أن يمضي بقية النهار في السرير معها حتى يشفى.

عند حلول ذكرى زواجهما الثانية، قطف الورود مجدداً، فأزاح الأشواك بعناية قبل أن يضع الباقة على السرير حيث كانت غرايس ترضع ابنهما الذي يبلغ الشهر من العمر.

غمغمت غرايس وهي تناول خافيير ابنه، ثم طمرت وجهها في البراعم المنفتحة قائلة: «خدا ريكو ناعمان كبتلات الورد. إنه رائع جداً. أليس كذلك؟ أتمنى أن نرزق بالكثير من أمثاله».

- هل تمزحين؟ لا يمكنني أن أخوض تجربة ولادة أخرى مثل هذه.

تذمر خافيير بارتعاد، فيما تذكر الساعات الست عشرة المليئة بالآلام والعذاب وهو يراقب غرايس تعاني من آلام الولادة، قبل أن يصل ريكاردو هيريرا أخيراً إلى هذا العالم.

حكّ شفتيه بنعومة فوق خد ريكو، فأحس بقلبه ينبض بالحب، ذلك الحب الذي ظهر في عينيه حين ابتسم لغرايس. فقال: «سوف نحبه من أعماق قلبينا، لكنني أخشى بأنه سوف يكون طفلاً وحيداً، عزيزتي».

وضع خافيير الطفل برفق في مهده، ثم تحرك نحو السرير حيث كانت زوجته تنتظره بذراعين مفتوحتين.

قالت غرايس بفرح وابتهاج: «هراء! أنا أرغب بإنجاب اثنين على الأقل، وأنت تعلم أنني دوماً أحصل على مبتغاي».

www.elromancia.com

بعد مرور ثمانية عشر شهراً، فعلت غرايس ذلك بالضبط، أنجبت توأمين من البنات هما روزا وسوزانا، فرنّت أرجاء القصر بأصوات ضحكات الأطفال.

إن أسد هيريرا لن يمشي بمفرده بعد الآن!

www.elromancia.com